مقالات
في المنهج

فهرس

تقديم

كان حدثًا مشهودًا في تاريخ البشرية، وسيبقى معلمًا مهمًا في حياة الإنسانية يوم نزل الوحي، فأحيا القلوب، وتحركت العقول لفهمه، وتجاوبت معه الأيدي لتحقيق مراده، ولاح كمال الإنسان في أرقى توحده وتوحيده: توحده في الانسجام بين عناصر تكوينه، ثم توحيده لربه، وانخلاعه من ذل التقليد والجهل والعبودية لغير الله، فكان كل فرد يُقَاس بأمة، وكم درج على الأرض من أمم لم يبق لهـــا حتى خبر الوجود!

إن من عظمة هذا الإنسان أن بارئه جعله قادرًا على التغير في نفسه والتغيير لما حوله، وذلك من أكبر ما منَّ الله به على جنس البشر، وميزه به عن الحيوان الذي لا يختار، وتلك نعمة الاختيار وثقل الأمانة التي حملها الإنسان. ولا يتم التغير بدون التعبير عن نقد الوضع الذي يحياه الإنسان، وتعريفه بالحال المطلوب أن يكون عليه، فلا مناص للإنسان من فهم لحاله ومعرفة بمراده، ووسيلة توصله –بوجه من وجوه الإيصال– للناس. ومن لم يعبر عن قناعته فلا يخلو من الخوف –من غير ربه– أو الجهل، أو عدم الثقة، بما عنده.

إن اللحظة التي نقول فيها أفكارنا، ونعلنها ونناقشها، وننصرها ونؤيدها هي نفسها اللحظة التي نثق فيها. بما عندنا وبما نقول، ونحب ما نشرحه ونؤيده؛ فتعظم قيمته في نفوسنا. ولسوف تجد هذه المبادئُ

طريقَها للتطبيق بعد الإعلان. أما المبادئ والمواقف المسكوت عنها فهي موطن الشك والريبة وعدم الثقة، ولو كانت حقًا لا مرية فيه، فما قيمة الحق إن دُفن بأيدي أهله؟ ولو كان معهم حق، وهم على يقين منه؛ لصوتوا به فوق كل منبر، كما صدع به ﷺ من فوق الصفا، وسخّر له كل وسائل الإعلام المعاصرة له، التي عرفها البشر آنذاك؛ ليظهر للعالم ما عنده، فاستخدم: الخطابة، والشعر، والأسواق، والرسائل، والوفود، والهجرة، والمحاضرة، والسر، والعلن، والسرايا، وبهذه الوسائل عُرِف الحق فَقُبِل وانتصر.

إن الذين مطُّوا شفاههم ساخرين من بدعة عبادة البقر والفئران، عندما عَرَضها للناس منحرفٌ، ودعا لها ممخرق، سخر الصامتون بالحدث، وهوّنوا من أمر البدعة الشنيعة، وقالوا: إن الإنسان لن يعبد بقرةً ولا فأرًا! ولكن المبتدع أصر ودعا لفكرته، وجنّد لها وسائل الإعلام الممكنة، أما العاقل صاحب الحق فسكت، وقال في نفسه: ستسقط الخرافة، ولكن هذا "الصامت" عاش حتى رأى أولاده يسجدون للفئران وللأبقار، ويطالبونه بالسجود لها مثل سواد من آمن بها!

والإنسان الخمول يهاب الاختيار، ويستوحش من المبادرة والأعمال الجديدة، فيترك حيوية الشرع، ويلجأ للهمود، ويأنس للهبوط والضعف والاستكانة في مسالك الجبرية، وحفر التقليد والعادة، يمارسها ويأمر قومه أن يلزموها، ثم يبرر؛ بل يلمّع خوفه وهوانه بكل زينة يستوردها

باسم واقع مرير، أو يجلبها من تاريخ يطفف به على الناس، يستوفي كيله ويخسر غيره. وقد يمجد المجتهد أو المعلم المبدع إن كان في العصر العباسي أو بعده بقليل؛ لأن مدح السالف لا يكلف، فلن يطلب منه الإمام مالك أو أحمد، أو ابن تيمية، أو غيرهم ممن مات _ أن يقف بجانبه في نصرة موقف حق، ولن يرى ابن أبي دؤاد فيواجهه، فيتسلى بأخبار الرجال ويخالف دربهم.

ويدأب القَعَدَةُ على تجريح من فكّر في التجديد من المعاصرين أو عمل عملاً لم يألفوه، حتى وإن اختار المجدد قولاً للسلف الصالح مشهورًا، أو كان معمولاً به. وقد درج المقلدون على استصغار رجال زمانهم، وتفنيد أفكارهم، حتى إذا ذهبوا تذكر قومهم - ولات حين تذكر- أنهم كانوا هداة، ولكن قومهم لا يعلمون.

فمن خاف أو جهل قتله التردد في مكانه، وأسخطه كل جديد، وأمر بمقاطعة كل كتاب لا يعرفه، وكل فكرة لم يأنس بها، وكل قول يشككه في صواب قعوده، ويألم ممن يعمل، ويحزن ممن يتحرك لنصرة دين الله. ألا ما أعجب هؤلاء! يتوقعون كل فجر من الزمان يستأذن عند أبوابهم، أو ينتظر أمرًا منهم، يقتلهم الوهم، ويوقظهم الموت، وينسون أنهم سعوا في إضعاف أمة، وقتل عقل وقدرة، بحربهم للفكرة الجديدة، أو لعمل خير لم يسبق أن جربوه.

وإن كنتُ لائمًا هنا، فإنما ألوم من فكر في تنقيص قيمة الأفكار،

وأثرها في حياة الأمم، فالتفكر استجابة لنداء الله، دعا الله عباده له، فأجابت الأمة المسلمة، وغامرت في بحار الأفكار والأعمال قرون مجدها، ثم أعرضت عن التفكير، وجهلت، وأدبرت، وانغلقت، فلم يقف الآخرون؛ بل جاءوا لعقر ديارها يغزونها، ويمتدون في فراغها، يبحثون عن الكتب والأفكار وتحركوا للعمل بما عندهم، وما عند غيرهم، وعلى الرغم مما فعلوه فإننا نشكرهم على حماية كتبنا من الضياع، لقد كان في سرقتهم لتراث المسلمين خير لنا بحفظه، ثم تعليمنا طرائق التحقيق بعد نسيان طويل، فقد كانت الكتب عندنا -وهي علوم وأفكار- تستوقد بها النار، ويُلَفُّ فيها الخبز في عواصم ثقافتنا!

ولم تزل الكتب والأفكار-حتى ما هو منحرف منها- تثير الأمم وتوقظ الشعوب؛ يذكر أحد زوار إسرائيل -وهو الكاتب الروسي إسحق دويتشر- أن مما لفت نظره في بدايات التكوين الإسرائيلي، أنه وجد في المدن الإسرائيلية كثافة في المكتبات إلى درجة يقول فيها إن المكتبات يكاد يزيد عددها على البقالات، ومحلات الخضار، وبشتى اللغات، وهذا سبب مهم من أسباب القوة التي تميزت بها عن جيرانها، حيث يسود الجهل والخوف والجمود. وأكاد أقول إني لا أعرف أحدًا من زعماء إسرائيل لم يكتب عددًا من الكتب: الفكرية، أو السياسية، أو الإستراتيجية، أو الدينية، أو التاريخية، أو المذكرات؛ بل طريق التفوق بينهم يقوم على تقديم من قهر العرب عسكريًا، ونال الاحترام فكريًا! وبين أيدينا في اللغة العربية مجموعة ضخمة - ترجمت للعربية - من

أعمالهم، فَكُتَّاب إسرائيل تهتم بإنتاجهم الثقافات والأمم الأخرى، وهل كانت الصهيونية إلا فكرة صممها صحفي واعٍ، وعكف عليها كتاب ومفكرون، يطورونها فكرةً وعملاً حتى كانت دولة؟ وإسرائيل ما هي إلا أحد فروع الصهيونية، فمكاسب الصهاينة في الغرب أكبر من إسرائيل. أما مشاريع السلام فكانت دراسات وأفكار ما بعد النصر، كتب بعضها نظريًا بيريز، ونشروا نصوصها وناقشوها عندما كان عساكر العرب يسخرون بفكرة السلام، ويتحدثون عن الإلقاء في البحر. ومراكز الدراسات عن العرب تمتلئ بها إسرائيل، وأنتجت أدق وأقوى الموسوعات عن شخصيات العرب والإسلام، ونظرية الإرهاب صممها ونفذها نتنياهو، وأقام لها مركزًا مؤثرًا قبل أن يرأس إسرائيل، وكتب أهم النصوص والوصايا التي أخذت طريقها للتطبيق في بريطانيا وأمريكا، وهي موجهة ضد العرب والمسلمين أولاً، ونجحت النظرية أيما نجاح في الربط بين العرب والإرهاب، وأن العربي يريد القتل لمجرد القتل بلا غاية، ولا هدف شريف.

وها أنتم ترون الأمم التي سادت بقوتها تؤسس المؤسسات التي تبدع، وترعى المبدعين؛ بل تعلن على التلفاز إعلانات شعارها المصباح، تبحث عن من عنده فكرة جديدة، إنهم يشعرونك بأنهم طلاب فكر وفهم في الاختراعات، وفي الأفكار المكتوبة المجردة. إن أفكارًا كثيرة وجدت طريقها للصناعة والوجود ما كانت إلا خيال رواية علمية؛ فإسحاق أزيموف ألف وحرر ما يزيد عن ٥٣٧ كتابًا كما سردت في

نهاية كتابه "مذكرات " المنشور عام ١٩٩٥م. كتب في عدد من العلوم: في الفلك، والطب، والدين، والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الأرض والأحياء، وهو أهم من كتب في روايات الخيال العلمي، هذا كاتب واحد فقط، وهو واحد من الكتاب الروائيين، الذين يستبق علماء الطبيعة، والكيمياء، والفيزياء؛ لقراءة رواياته الخيالية الجديدة؛ لأنهم ربما يجدون في خيالاته فكرة تكون منها صناعة جهاز جديد، أو فتح في عالم المعرفة بالكون. ثم يقول أحدنا: لماذا تنتشر الثقافة الأمريكية؟ بل لم لا تقول كيف يصمد غيرها؟

إن التفكير في العلم ليُستنبط منه حلٌ لمشكل قائم هو دور المفكرين والمصلحين من الأمة؛ فهو عمل بالعلم، وليس استغراقًا فيه يشغل عن غايته ويلهو بالعلم عن مراده؛ فثمرة المعرفة العمل، فلا بد من فكرة تقال وتعرف، ثم تناقش وتطبق، ولا تغني الفكرة عن التطبيق، ولكننا لم نزل نعاني من فقر الأفكار وحصارها، وإن وجدت وأعلنت – على قلة ما يقال– فإنه يُتعامل معها بطريقة شفهية قاتلة لها غير متعدية للعمل، أو تقف عند الألفاظ، ولا تأبه بالمقاصد. يقول ابن الجوزي: حُكِي أن ملكًا كتب إلى عماله في البلدان إني قادم عليكم، فاعملوا كذا وكذا ففعلوا إلا واحدًا منهم، قعد يتفكر في الكتاب فيقول: أترى كتبه بمداد أو بحبر؟ أترى كتبه قائمًا أو قاعدًا؟ فما زال يتفكر حتى قدم الملك – ولم يعمل مما أمره به شيئًا– فأحسن جوائز الكل، وقتل هذا. (صيد الخاطر ٥٠٢).

فالحق يحتاج، للعرض، والدرس، وتقليب وجوه الفهم، وليس تجميد النصوص، والقراءة السلبية التي لا تتجاوب وتتفاعل مع المقروء، فإن المبادئ التي يلزم الناس باعتناقها دون وعي، وتحقيق، وجدل في صحتها أو سقمها، لا بد أن يخذلوها؛ لأنهم لا يفهمونها، ولا يتجاوبون معها، ولا تمس أرواحهم وعقولهم، وليس لهم فيها نوع مشاركة، وليس لنا من مخرج إلا بحرية الرأي والاجتهاد، وفتح مجالات التفكر، والوعي والمراجعة؛ ليتبين الحق من الزيف، وما دام الحصار الثقافي مضروبًا على شخص أو جماعة، فسيغالي في عصمتهم أقوام، ويبالغ في نقدهم آخرون، ولا يمكن الحكم على الممنوع بالنقض؛ لأن حجته لم تسمع وقد يكون صاحب الحق والخير.

إن حرمان صاحب الفكرة من وسائل وصولها للناس ــ قد يحرم المفكر نفسه من التفكير والنضوج، ولكنه أيضًا يحرم المجتمع قادته وعامته من التقدم والوعي. وإن الانفتاح والتعارف والحوار شعار العقلاء وسنتهم عبر القرون ﴿ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١١١][1] جاء بهذا النبيون، وقص الله هذه الفضيلة عنهم من نوح وإبراهيم إلى محمد صلى الله عليهم وسلم.

وإنك واجد في هذه الطبعة من الكتاب خلاف ما كانت عليه الأولى، وما ذاك إلا ظاهرة خير، وفائدة تفكر فيما قيل، فما من مصلح

(1) وجاءت في عدة مواضع في القرآن: [الأنبياء:٢٤]، [النمل:٦٤]، [القصص:٧٥].

صادق ساق للناس رأيه وهو يعتقد في رأيه العصمة والكمال، فالعصمة لمن عصم الله، أما الناس فما لبثوا يأخذون ويتركون ويصيبون ويخطئون، وهم على خير ما داموا يحاولون الصواب، ويصدقون النية، ويخلصون العمل ويستهدون الطريق.

وكاتب هذا الكتاب علم في جهوده العلمية والفكرية، ومشاركته في شتى القضايا الإسلامية، عرفه المسلمون معلمًا ومربيًا ومعلقًا على الأحداث الدولية، نسأل الله أن يوفقه للإخلاص والصواب، وأن ينفع به الأمة.

محمد بن حامد الأحمري

رئيس مجلس أمناء التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية

رجـل

في القرآن الكريم في قصة موسى حين قتل القبطي، وهمّ بقتل الآخر أو البطش به، وتفاقم أمره وانتشر، تجد قول الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ [القصص:٢٠]، وفي سورة يس في قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، تجد قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ [يس:٢٠]، وفي سياق هاتين القصتين تجد الحقيقتين التاليتين:

أولاهما: النص يبرز كلمة ﴿ رَجُلٌ ﴾ وهي تعني شخصًا مفردًا، فهو رجل واحد ينقذ الموقف بخصائصه الذاتية أو الإيمانية، ولا يستوحش من غربته بين أهله، أو تفرده في طبقته، فيحيط موسى علمًا بالمؤامرة الدنيئة التي يحيكها القصر الفرعوني للقضاء عليه وعلى دعوته، ويقترح عليه الحل، وهو الخروج من قريته والفرار بنفسه، وفي قصة "يس" يعلن أمام الملأ نصرة المرسلين، ويدعو إلى اتباعهم متحديًا بذلك رؤوس الضلالة، صارخًا به في وجه الجماهير المؤمنة.

وعلى رغم أهمية العمل الجماعي والعمل المؤسسي، وأهمية التعاون على البر والتقوى، والتناوب في أداء فروض من الكفايات، إلا أن الواقع كثيرًا ما يفتقر إلى المبادرات الفردية، خاصة في مثل فترات الضياع التي تمر بها الأمم، وتوشك أن تأتي على وجودها وتميزها، حيث لا يبقى ثَمَّ جهة مسؤولة بعينها عن اكتشاف المواهب أو عن تحديد الأدوار، وهذا

هو الحال الذي يعيشه المسلمون الآن في كثير من بلادهم. هنا تبرز الحاجة إلى تكثيف المبادرات الفردية من الداعية، والتي لابد وأن تسد بعض النقص، وأن تتلاقى يومًا ما على خطة راشدة، يكون فيها للمسلمين فرج ومخرج؛ بل وحتى رسم برنامج لعمل شرعي يستهدف الإصلاح العام، فبدايته غالبًا وشرارته تنطلق من جذوة قلب يحترق لحال المسلمين، وحتى التماس خطة لرعاية الكفاءات وإنضاجها، وتحديد مداراتها فهو الآخر يحتاج إلى شيء من ذلك.

ليس هذا تقليلاً من أهمية تضافر الجهود وتكاتفها، ولا تهوينًا من شأن المبادرات الجماعية التي آتت وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ولكنه تأكيد على الدور الفردي المساهم في إيجادها، وعلى الدور الفردي الذى لا يقف عندها.

وثانيهما: أن كلمة ﴿ رَجُلٌ ﴾ تعنى الثناء على خصائص الرجولة والشهامة والأريحية[1]. إنه ﴿ رَجُلٌ ﴾ وكفى، فالرجولة وعاء يحتوي عددًا من الخلائق والشيم الفطرية: كالقوة، والصدق، والتضحية، والصبر...

رجل والرجال قُلٌّ، وما يقصم عود الرجال غير الصمود؛ ولهذا فالرجل في الموقفين لم توهن إرادته العقبات، ولم تثن عزيمته العوائق، وتغلّب على الصعاب: بُعد المسافة ﴿ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾، وضيق الوقت ﴿ يَسْعَىٰ ﴾، وخطورة الموقف، والدافع كان نبيلاً لا يرتبط بمصلحة ذاتية أو قرابة،

(1) الأَرْيَحيَّةُ: الارتياح والنشاط إلى المعروف. المعجم الوسيط (٣٩٤/١).

ففي قصة موسى: ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [القصص:٢٠]، وفي قصة صاحب "يس" يظهر جليًا حدبه على قومه، وحبِّه الخير لهم، حتى بعد أن وثبوا عليه، وأقعصوه[١] ورجموه. قال تعالى له: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾، فتمنى لهم الخير فقال: ﴿ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٦،٢٧]، قال ابن عباس ﷺ: "نصح لقومه في حياته بقوله: اتبعوا المرسلين، وبعد مماته بقوله: يا ليت قومي يعلمون"[٢]، وقال قتادة: "لا تلقى المؤمن إلا ناصحًا، لا تلقاه غاشًا، لما عاين كرامة الله قال: يا ليت قومي يعلمون"[٣].

إن الخصائص الذاتية الفطرية ذات أثر كبير في سلوك الإنسان سلبًا أو إيجابًا -أيًا كان توجهه-، والإيمان لا يلغيها؛ إنما يهذب رديئها ويستثمر جيدها؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي‌هريرة ﷺ: **"تجدون الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه، وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه"**[٤]؛ ولذلك كان أصحاب المروءة والسؤدد والرجولة في الجاهلية هم أهل ذلك في الإسلام لما حسن إسلامهم، ولا يكاد

(1) يقال : أقعصته إذا قتلته قتلاً سريعاً ، وأقعصَ الرجلَ : أجهز عليه .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في تفسير ابن كثير (يس الآية ٢٦/٢٧).

(3) رواه الطبرى (١٩٣/٢٢)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٥٦٩/٣) وعزاه لابن أبي حاتم.

(4) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٥٢٦)، وهذا لفظه من حديث أبي هريرة ﷺ.

يعرف ممن تلبسوا بالنفاق أحد أسلم وحسن إسلامه، وأبلى في الدعوة والجهاد إلا أقل القليل؛ ولهذا لما ذكر الله المنافقين في سورة النساء، وتوعدهم قال تعـالى: ﴿ إِلَّا الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء :١٤٦]، ولم يقل: من المؤمنين.

إن الطبائع المتذبذبة، والخلائق الرخوة، التي ألفت التقلب، وجُبلت عليه لحَرية بالنكوص والتراجع، وغير جديرة بحمل الأمانة والصبر عليها. ولقـد ترى في هذا الزمان -وفي كل زمان- من الناس الذين لم يؤمنوا بديـن، ولم ينتظروا وعدًا أخرويًا مَنْ تَحْمِلُهم أريحيتُهم وقناعاتُهم على ضروب من الصبر والمغامرة والفداء، تتمنى مثلها لكثير من أهل الإيمان. وأمـا في عالم المؤمنين وفي تأريخهم خاصة، فأنت تجد من ذلك الكثير الطيب المبارك، ولأصحاب الخصائص هؤلاء ارتباط وثيق بالمعنى الأول، فهـم أصـحاب المبادرات، وهم أحق بها وأهلها، والواحد منهم كأنه جماعـة من الناس اجتمع فيه من ضروب الكمال ما ينوء بالعصبة أولي القـوة؛ ولهذا قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠].

* * *

ليس من أجلك بل من أجل الدعوة

أمتكم هذه أمة ولود، ودود، معطاء، لا تزال غضة الإهاب، موفورة الشباب، قادرة بإذن الله على تعويض النقص الذى يطرأ عليها كل حين، تبدلت دول، وذهب رجال، وتحطمت مشاريع وأعمال، لكنَّ الأمة باقية.

ومصير الإسلام مربوط بمصير الأمة، لا بمصير فرد، ولا جماعة، ولا مؤسسة، ولا حتى دولة، الإسلام أكبر من كل ذلك، وإن من الخطأ أن نربط مستقبل الإسلام، أو مستقبل الدعوة الإسلامية بما يؤول إليه أمر هذه الجماعة أو تلك، أو بمقدار ما يمنحه هذا الفرد أو ذاك، أو بسبب استمرارية نشاط نعتقد أنه إيجابي وبنّاء.

نعم، ثمة جهات كثيرة ذات تأثير واضح في دفع عجلة الدعوة، وثمة أحداث بارزة، وشخوص وأعمال، ولكن هذه كلها وسائل قد يقوم غيرها مقامها، وقد يموت شخص فتحيا أمة، أو يبدل الله الناس خيرًا منه.

إذا مات فينا سيـــد قام سيد
قؤول لما قال الكـــرامُ فعـــولُ

وما مات فينا سيد حتفَ أنفه
ولا طُلَّ منا[1] حيث كان قتيل

(1) طُلَّ: طَلَّ، أي هَدَرَ وبَطَلَ، و لم يُثأر به، ولم يؤخذ ديته. انظر المعجم الوسيط (٢/٥٨٤).

يقرب حبُّ الموتِ آجالـــنا لنا
وتكرهـــه آجالُهم فتطـــول

إن مما يؤذي النفس أن يربط الناس مصير الدعوة في بلد أو أمة بمصير أشخاص، مهما عظموا وجلّوا في عيون الناس؛ فالإنسان بشر محدود العمر، محدود المواهب، محدود الإمكانيات، وهو عرضة لأن يجتهد فيخطئ ويصيب، كما هو عرضة لأن يفعل شيئًا دون اجتهاد، وهو رهن المؤثرات المحيطة به: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والنفسية، ولا ينفك عنها بحال.

الكثيرون يجعلون أيديهم على قلوبهم، نخاف أن يوصد هذا الباب، أو يمنع هذا السبيل، أو يحال بين هذا الخطيب ومنبره، وبين هذا الكاتب وقلمه، وأقول: كان ماذا؟ وكم لله من خطيب، وكاتب، وداعية؟ وكم للخير من أبواب وأسباب ؟ !

نعم، ليس عليك من حرج أن تحزن لغلق باب من أبواب الخير، لكن الحرج أن تعتبر مصير الدعوة مرتهنًا بهذا الأمر، ولا يلام الناس إذا تأثروا بخفوت صوت، أو غياب كلمة حرة صادقة، لكنهم يلامون إذا كانوا يعدون مستقبل الدعوة تحطم وانتهى بسبب هذا.

الأمة -معاشر الأحباب- معطاء، ولود، وإذا سكت صوت خلفه ألف صوت، وإذا مات خطيب فسوف يأتي الله بألف خطيب، كلهم يقتفون الأثر، ويتبعون السبيل.

إننا بهذه الطريقة نحمّل الناس ما لا يحتملون، ونَئِدُ- شئنا أم أبينا- كل نابتة خير في الأمة، فمن ذا الذي يملك أن يتحمل مستقبل الدعوة، فيحاسب على أنه هو "الدعوة"، وهو "المستقبل"، وهو "الواقع"، مَن؟

إنما العدل أن يوضع كل شخص في مكانه الطبيعي، وبحجمه المعقول، لا نبخس الناس أشياءهم، ولا نهضمهم حقوقهم، ولكننا لا نرفعهم فوق قدرهم، ولا نحمّلهم ما لا يحتملون، و لا يطيقون.

وفي فترات الضعف والتردي، إذا تهيأ للناس واجهة علّقوا عليها كل شيء، وبدلاً من توزيع الأدوار والمسئوليات والتبعات، يستسهل العامة الإلقاء بالأمر على " أقرب مذكور"؛ ولهذا تجد الكثيرين يسرقون أنفسهم من الأضواء، ويختفون من الساحة في صمت؛ لأنه لا قبل لهم بهذه الأعباء الثقال، التي تولدت عن إلباسهم جُبَّة اسمها "الدعوة"، واعتبارهم ناطقين باسمها، ومعبرين عنها.

إن الله تعالى يقول: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١]، ويقول سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ **[المدثر:٣٨]**، ويقول جَلَّ: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١]، ويقول عز من قائل: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء:١٣]، فمن أيِّ نص أخذ بعض أهلِ الزمان أن من كان شيئًا يجب أن يكون كل شيء؛ ليلقوا المسؤولية عن أعناقهم وكواهلهم، ويبرئوا ساحاتهم. إن الفرق بينك وبين فلان، هو أنه قام بواجب ما قمت به أنت، فجزاه الله

خيرًا وبارك في علمه، وأصل التكليف بينكما واحد، ولا يبعد أن لديك من الذكاء الفطري، أو قوة الحفظ، أو سعة العقل، أو شمولية الشخصية ما ليس عند غيرك، فلماذا تنسى نفسك، وتدفن مواهبك، ثم تعاتب من تحامل على نفسه، وعمل بما يستطيع، وقصر هنا أو غفل هناك؟

* * *

التجديد موقف

ماذا صنع الصديق ﵁ كبير رجالات هذه الأمة- بعد نبيها ﷺ - حتى استحق هذه المكانة؟ ماذا صنع؟ لنقرأ التاريخ.

حين توفي رسول الله ﷺ وقبضت روحه الطاهرة، أظلم كل شيء في المدينة، وصار المسلمون كالغنم المطيرة، ونجم النفاق وقام عمر ﵁ على المنبر يهدد ويتوعد قومًا يزعمون أن النبي ﷺ مات، ويقول: "إنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى إلى ربه، وسيعود فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات". إنها الوهلة والمفاجأة المذهلة التي تذهب اللب، وتدع الحليم حيران، فماذا صنع أبو بكر؟ موقف سهل لكنه حاسم، وهو الموقف الذي تنتظره الساعة: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: " من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قبله ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ثم استغفر ونزل ﵁.

إنه موقف يفتقر التاريخ إلى مثله، لا يعدو أن يكون قرر حقيقة وقرأ آية، لكنه كان يفعل ذلك بغاية الثقة واليقين الراسخ الصلب، كان يتحدث بقوة الحق، فلما سمع الناس هذه الآية ثابوا إلى رشدهم، ورجعوا يقرؤونها في أسواقهم وبيوتهم، حتى كأنها لم تنـــزل إلا الساعة. ما زاد

أبو بكر على أن قرأ آية فحسم الجدال، وانطلق الناس بها يتذاكرونها ويتعجبون!

هذا هو التجديد: أن تفتح عقول الناس على الحق، والأمر لا يتطلب أكثر من الشجاعة المعبرة عن اليقين، فمن لنا بموقف كموقف الصديق؟

موقف آخر: لما ارتد الناس عن الإسلام، و لم يبق إلا المدائن الثلاث: مكة، والمدينة، والطائف، وصار المسلمون جزيرة صغيرة في وسط بحر متلاطم، وأبت العرب بيعة أبي بكر حتى قال قائلها:

أطعنا رسولَ الله إذ كان بيننـــا

فيا لعبـــاد الله ما لأبي بكـــر!

أيورثها بكرًا -إذا مات- بعده؟

وتلك لعَمرُ الله قاصمةُ الظهر!

أطبق الصحابة ﵃ على أن يهادنوا مانعي الزكاة، ويقاتلوا المرتدين عن الدين كله، وفاوضوا أبا بكر في ذلك، وهنا يأتي "الموقف": "والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة"، فإن الزكاة حقُّ المال "والله لو منعوني عقالاً أو عناقًا كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه"، وانتهى الجدل، وحسم الأمر. عمر نفسه ﵁ يقول: "فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق "[1]. وتتحرك

---

(1) أخرجه البخاري (٧٢٨٥)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﵁، وفي بعض الروايات: "لو منعوني عناقًا" كما عند البخاري (١٤٠٠).

الجيوش من المدينة في كل اتجاه حتى تخمد الفتنة، ويستوثِق أمر الإسلام مرة أخرى. ربما كانت غلطة واحدة في مثل هذا الموقف تغير مجرى الأحداث، ولكن كان الله يحفظ الإسلام بأبي بكر؛ فيوفقه ويسدده.

موقف ثالث: بعث أسامة بن زيد إلى جهة الشام، وفيه وجوه الصحابة، وقد بدأ الإعداد لهذا البعث في آخر حياة النبي ﷺ ، ثم حال مرض النبي ﷺ دون إنفاذه، فلما تمت البيعة لأبي بكر عزم على إنفاذه. المدينة على وجل، النفاق يشرئب في داخلها، والوثنية تنفض الغبار عن كاهلها، وتسترد أنفاسها، وتتهيأ للهجوم، والردة تكتسح جزيرة العرب. فيا خليفة رسول الله ﷺ، كيف يمضي وجوه الصحابة ويدعون المدينة لهذه الذئاب المتعاوية، ومـــا دام الأمر قد استقر على حرب المرتدين جملة، حتى مانعي الزكاة، فلم لا يبقى هذا البعث ردءًا وعونًا للمسلمين؟ ولكن عزيمة الصديق الماضية تسجل موقفًا خالدًا في التاريخ: "والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين؛ لأجهزنّ جيش أسامة"، وهكذا مضى البعث، فكانوا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا رعبوا منهم وقالوا: "ما بعث المسلمون هؤلاء إلا وهم منعة شديدة"[(١)].

إن تجديد أبي بكر رضي الله عنه تجديد المواقف الحاسمة الشجاعة؛ ولذلك اشتهر عن السلف قولهم: "إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم

(1) انظر البداية والنهاية (٦/٣٠٤).

الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة"[(١)] . وعلى هذا الطريق سار الأئمة العظام، فالإمام أحمد- مثلاً- كان يترسم خطى أبي بكر في الصبر، والثبات على الحق يوم المحنة؛ فثبته الله، وثبت الإسلام به؛ ولذلك كان قرينًا له في العبارة الماضية: " إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة ".

المواقف التي وقفها المجددون واضحة لا تحتاج إلى جدل؛ إنما تحتاج إلى الإرادة الصلبة التي تستطيع أن تصمد في وجه المخالفين مهما كانوا. ما الذي بنى سمعة العلماء الكبار عبر التاريخ وخلد ذكرهم؟ ما الذي جعل الأمة تجمع على الأئمة الكبار:كمالك، والشافعي، وأحمد، وأبي حنيفة، وسفيان الثوري، والبخاري، وغيرهم...؟ إنها المواقف الشجاعة مع العلماء، أو مع الخاصة.

ليس التجديد ترفًا فكريًا، ولا مؤتمرات تعقد، ولا فلسفة، ولا كلامًا فارغًا. التجديد موقف شجاع يحفظ للإسلام هيبته، ويحفظ للعالم كرامته.

وَلَوْ أَنّ أَهْلَ العِلم صَانوه صانَهم
ولو عَظَّمُوه في النُّفُوس لَعُظِّما

ولكـــن أَهَانوه فهان ودَنَّسُـــوا
مُحَيَّاه بالأَطماع حتى تَجَّهمَا

(1) انظر تذكرة الحفاظ (٢/٤٣٢).

فهل من يقظة لعلماء الأمة؟ ألا موقف خالد شجاع يسمح لنا أن نتناقله بغبطة، ويعيد الأمل إلى نفوس كاد يقتلها اليأس؟ لعل! وإنا لمنتظرون.

* * *

التجديد شريعة قائمة وقدر نافذ

من المقررات المفروغ منها عند جميع الأمة: أن الأنبياء والمرسلين قد ختموا بنبينا محمد ﷺ، فلم تعد السماء تفتح لنـــزول الوحي على بشر بعده عليه صلوات الله وسلامه. وهذه عقيدة راسخة ثابتة بنص القرآن، وصريح السنة، وإجماع الأمة كافة؛ ولذلك فالأمة قاطبة مجمعة على أن من أنكر ختم النبوة بمحمد ﷺ فهو كافر؛ لمخالفته النص القطعي الصريح ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولهذا رمت الأمةُ المسلمةُ القاديانية عن قوس واحدة، وناضلت حتى أبانت للخاصة والعامة كفر هذه الطائفة، ومروقها من الدين، وصدر بذلك حكم شرعي بوصف القاديانية أقلية غير مسلمة، وهذا الحكم لا يعدو أن يكون إعلانًا رسميًا للموقف الصحيح، الذي لم يختلف فيه المسلمون لحظة من الزمان، والذي يقضي بردة كل من ينكر ختم النبوة، أو ينكر أمرًا قطعيًا ثابتًا بالنص الصريح.

وإذا كانت حكمته تعالى اقتضت أن يكون محمد ﷺ خاتم الرسل وآخرهم، فإن رحمته تعالى أن يَصِلَ المجددون الحبلَ، ويحيوا ما اندرس من أمر الدين، فحين أُغْلِق باب النبوة فُتِح باب التجديد لهذه الأمة الممتدة في شعاب الزمن، والباقية إلى يوم القيامة.

هذه البشرى العظيمة جاءت في حديث رواه أبو داود وغيره عن

أبي هريرة ﷺ، وهذا لفظه: " **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**"(١). والحديث حديث آحاد من حيث الإسناد؛ بل لعله غريب الإسناد؛ ومع هذا فإني بعد البحث والتقصي الطويل لم أجد أحدًا من العلماء ردّ هذا الحديث، أو تردد في قبوله؛ بل قد نقل السيوطي في رسالته المخطوطة "**التنبئة فيمن يبعثه الله على رأس المائة**" إجماع العلماء على تصحيحه. وبغض النظر عن عشرات العلماء الذين نطقوا بتصحيح الحديث، فإننا أمام مئات ممن تكلموا في شرحه، وبحثوا في تحديد صفات أو مفهوم المجددين، وتكلموا في المسائل المتفرعة عن هذا الحديث، والمبنية على تصحيحه(٢).

والحديث يقرر سنة إلهية مطردة في هذه الأمة: سنة التجديد لما اندرس من أمر هذا الدين على رأس كل مائة، وهذه السنة لها جانبان:

الأول: الجانب القدري: فهو خبر عن وعد إلهي لا يتخلف، أن التجديد آت لا ريب فيه، وهو - بهذا الاعتبار- من البشارات النبوية

---

(1) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٨٥٩٢)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٣٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، قال الطبراني في الأوسط عقب الحديث: "لا يروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به ابن وهب". اهـ: وقد صححه الحاكم ، وقال الزين العراقي: سنده صحيح، كما في فيض القدير للمناوي (٢٧٥٥) .

(2) انظر طرفًا من كلام العلماء على مفهوم التجديد وشروطه في: فتح الباري (٧٣١٢)، وعون المعبود (٤٢٩١)، وفيض القدير (٢٧٥٥).

العظيمة. فالتجديد قدر، ومن ذا الذي يرد القدر؟ من ذا يحجب الشمس بيديه الضعيفتين؟

أتطفئ نورَ الله نفخـةُ كافـر
تعـالى الذي بالكـبرياء تفرّدَا

الثاني: الجانب الشرعي: فهو طلب إلى الأمة، وخاصة القادرين من أهل العلم والإيمان، أن يؤدوا الدور المنوط بهم، فقد يكون التجديد على أيديهم.

إن المجدد ليس مَلَكًا يهبط من السماء! وإن كان العراقي- رحمه الله وغفر له- ظن ظنًا في غير محله، حين قال في قصيدته عن المجددين:

والظـن أن التـاسع المهـدي من
ولد النبي أو المسيـح المهتدي!

فالأمر أقرب ما يكون وذو الحجى
متـأخر ويسود غير مسـوّد!

فكان يظن أن مجدد القرن التاسع هو المهدي الموعود!

نحن لا نجد حرجًا في اعتبار المهدي، أو عيسى عليه السلام آخر المجددين، وليس هذا بمنكر، لكن المنكر أن يضع المسلمون خدودهم على أكفهم، ويضعوا رِجْلاً على أخرى، ويقولون: ننتظر المجدد! والمجدد لا يحيي الموتى، ولا يحرك الرمم، وليس خارقًا من الخوارق؛ المجدد يتزعم تيارًا

متدفقًا من أهل العلم والإيمان. عمر بن عبد العزيز لم يكن وحده، والشافعي لم يكن وحده، وابن تيمية لم يكن وحده.

ثم المجدد ليس بالضرورة فردًا؛ بل الغالب أن يكون التجديد مهمة "طائفة"، إنها الطائفة المنصورة التي تنازل الانحراف في الأمة فتنتصر عليه. وإذا جاز أن يكون مجدد القرن الثاني أو الثالث فردًا- على سبيل الافتراض- فإن هذا يكاد يتعذر في القرون المتأخرة؛ وذلك لأن الأمة قد اتسعت وانتشرت، وأصبح التأثير على جميعها أمرًا في غاية المشقة والعسر، وجوانب الانحراف تعاظمت، ولم تعد مقصورة على مجال دون آخر، مع أن نوعية المصلحين والمجددين تضيق ويقل مستواها كلما تقدم الزمن، والله المستعان!

وعلى هذا الرأي تجتمع كلمة طائفة غير قليلة من أهل العلم. فليس موقفًا صحيحًا أن ييأس المصلحون، ويقعدوا في انتظار مجدد لا يدرون من أين يأتي. ولنفترض فيهم من العيوب والنقائص ما نفترض، فإنهم مخاطبون بالشريعة، ومكلفون بها، فمن كان عنده علم فليظهره، ومن كان لديه طاقة فليبذلها، ومن كان له موقع فليستثمر ذلك الموقع في أمر أو في إصلاح، ولتكن مجددًا في قريتك، أو مدرستك، أو إدارتك، أو حتى أسرتك.

وكم هو محزن أن تجد الكثيرين تخلّوا عن مسؤولياتهم وواجباتهم بحجة أن الخرق اتسع على الراقع، وأنهم لا يمكن أن يسبحوا ضد التيار!

فأيـــن الصـــبر إذًا؟ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [يوسف:١١٠]، ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ والذينءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وها هنا يجيء أثر مثل تلك البشارة النبوية، وتبرز أهمية الإيمان المطلق بها. إننا أمام وعد مؤكد لا يتطرق إليه أدنى احتمال، فلسنا معذورين بحال من الأحوال؛ لأن الحديث يؤكد أن التجديد يتم ويحدث على رأس كل قرن، فمن يستطيع بعد ذلك أن يقول: الأمر أكبر من ذلك، أو لا تنطح الجبل برأسك. إن الداعية الصادق، والعالم العامل، يفتت الجبل بعزيمته الصادقة، وإيمانه العميق، وهمم الرجال تبيد الجبال.

وكم من أمة أو نحلة ناهضت الإسلام، وألّبت عليه الأحزاب، وأثارت مخاوف المدافعين عن حوزات الإسلام ــ فذهبت وبقي هو! إنه الدين الخاتم الذي يتجدد على رأس كل قرن، وإن غدًا لناظره قريـــب ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۢ ﴾ [ص:٨٨].

* * *

أحكام ناقصة

يفتقر المسلمون -والدعاة والمعنيون بأمر الأمة خاصة- إلى أجهزة الرصد والدراسة والإحصاء، التي يتم من خلالها التعرف على اتجاهات الناس، وآرائهم، وقناعاتهم، ومن ثمّ كيفية التأثير فيها، أو التجاوب معها في حدود ما أباحت الشريعة. وهذا يربك خطط الدعوة ويجعلها في موقع ضعيف، فربما حققت نجاحًا لم يتفطن له رجالها؛ لأنهم لم يسبروا غور المجتمع، ولم يتعرفوا حقيقة الحال، وربما وقعت في فشل أو إخفاق لم تحسب له حسابًا أضر بها، وكان تكراره سببًا في المزيد من الخسائر.

ونتيجة هذا الفقر الذي يعانيه المسلمون؛ يلجأ الكثيرون إلى الحكم على الأشياء من خلال الجو الذي يحيط بهم، أو النوعية التي تعاشرهم، مثلاً: احتدمت معركة فكرية بين مجموعة من الدعاة وأحد الرموز المعروفة فترة من الزمن، وكان ثمة حاجة لمعرفة أثر ذلك على الناس، فتجلس مع رجل معني بالأمر فيفاجئك بقوله: الحمد لله، فلان سقط في عيون الناس فلا يرونه شيئًا، الجميع ينتقدونه حتى الذين كانوا يصفقون له بالأمس، ويظل يرسم صورة من لون واحد على هذا النسق.

فأنت ترى هذا قد جعل "الناس" و "الجميع" هم من يحيطون به فقط، أو يعايشونه في عمل، أو دراسة، أو مجتمع محلي، ثم إذا بك في موقع آخر تسمع صوتًا آخر يقول: والله إن الناس ما يزالون يحتاجون

للمزيد من الوعي والفهم، فهم لا يزالون معجبين بفلان، متحدثين بمآثره، مشيدين بشخصه، وهنا تجد أن "الناس" قد تغيروا وتبدلوا.

وإذا كان هذان التقريران المتناقضان من شخصين متفقين في المشرب، فباليقين لو أنك أدخلت ضمن القائمة أشخاصًا ذوي اتجاهات أخرى؛ لخرجت لك الصورة بالغة التناقض، متباعدة الأطراف.

وكل هذه الأحكام لم تبن على رصد ولا على استقراء عام ولا خاص، حتى ولا لشريحة عشوائية من أفراد المجتمع، وكذلك لم يراع الذين أطلقوها الموضوعية والدقة في أحكامهم، فلو أن إنسانًا قال: طلبة الجامعة الفلانية، أو أهل المدينة الفلانية، أو سمى طبقة أو تيارًا ــ لكان أقرب إلى الصدق، أما هذا التعميم الفضفاض، مع غياب المعايير الصحيحة، وأساليب الرصد والاستقراء، وندرة الاستبانات التي تعد إعدادًا جيدًا، وتوزع، وتدرســ فإن ذلك لا يخلو من آثار سلبية، إما في تضخيم شيء، أو التهوين منه.

أضف إلى ذلك أن كثيرًا من الأحكام تتأثر بالعواطف والقناعات الشخصية، فإذا هوينا شيئًا وتمنيناه، حولناه إلى واقع بخيالنا الخصب، وإذا كرهنا شيئًا، قللنا منه وتجاهلناه، واعتقدنا أننا بذلك ندفنه، ونتجاوز خطورته.

حتى روايتنا للأخبار والوقائع يحدث فيها ذلك أحيانًا، فنخلط بين ما نتمنى وبين ما يحدث فعلاً، وهذا يجر إلى إحراجات نحن في غنى عنها.

إننا نفتقر إلى الموضوعية والحياد العلمي، وإلى الأساليب الفعالة في دراسة الواقع، ومعرفة اتجاهاته وقواه.

وحتى لا أقع فيما أحذر منه، فإنني لا أعمم هذا على الجميع، لكنني أقول: إنه نقص موجود لدى فئة غير قليلة من شباب الأمة؛ بل من دعاة الإسلام، والسلام.

ولا يشترط أن يكون تدارك هذا الأمر عملية صعبة تحتاج إلى مراكز أبحاث ودراسات، نعم هذا مطلوب وممكن، ولكن ثمة ما هو أيسر منه، إن مجرد وجود الإنسان الموضوعي والواقعي الفطن يمكن أن يحل المشكلة -ولو جزئيًا-، فيضع لنفسه استبانات، ويَكِل لبعض مَن حوله دراستها، ويستقرئ أحوال الناس من خلال المجالس، أو المراسلات، أو المهاتفات، على أن يضع في اعتباره نوعية الشريحة التي يتعامل معها.

وإن فقدنا هذا أو ذاك، فلا أقل من الدقة في الملاحظة الذاتية في الأمور والأحداث، وعدم التسرع في إطلاق بدون تأمل، ونظر فاحص ورويّة، والله المستعان.

* * *

بعض الناس

عقدت في ذهني مقارنة بين كلمتين سمعتهما منذ حين:

أولاهما: كلمة للإمام أحمد بن حنبل، وقد اعتزل الناس في آخر عمره، و لم يُبق إلا على صلته بالخواص من خلصائه، فقال له قائل: "يا إمام، يقال إنك زهدت في الناس!" فقال أحمد: "ومن أنا حتى أزهد فيهم؟! الناس هم الذين زهدوا بي".

هذا التواضع، وهضم النفس، واحتقار الذات ــ حقيقة لا تمثيل، مع أنه لم يمنع الإمام أحمد من أن يقف تلك الوقفة الشامخة في فتنة القول بخلق القرآن، حتى نصر الله به السنة، وكان فردًا في بابه، لم يقم مقامه أحد، ولم يعبأ أحمد بشيء، ولم يغضب لنفسه، ولما جاءه محمد بن نصر الخزاعي يعرض عليه الثورة المسلحة ضد حكم بني العباس الجائرين المغيرين؛ لم يرتض الإمام أحمد ذلك؛ بل عارضه ورفضه، فكان - رحمه الله - غاية في الإخلاص والتجرد لله.

ومع هذا التاريخ، وهذه العظمة الحقيقية، وما حفلت به سيرته من الزهد والورع، والقبول والتقوى والشهرة ــ إلا أنه لم ير نفسه شيئًا، ولم يعتزل الناس زهدًا فيهم؛ بل هم الذين زهدوا به، ولم يجدوا عنده شيئًا يغريهم بقربه، هكذا كان يقول رحمه الله.

ولما مات انجفلت بغداد إلى جنازته، وتألبت جموع لم يُرَ مثلُها قط، وكأنه المعنيّ بقول ابن الرومي:

فإن لا يكـــن حيًا لَدَينـــا فإنه

لدى الله حي في الجنـــان مزوَّج

وقد نال في الدنيا سناءً وصِيتة[1]

وقام مقامًا لم يقمـــــه مُـــزلَّج[2]

عفاءٌ على دارٍ ظَعَنت[3] لغيرها

فليس بـــها للصالحين معـــرج

أما الكلمة الثانية: فهي أبيات من قصيدة المتنبي في الحمى، وليس فيها إلا تكريس المعنى المبثوث في كتب الأدب شعرًا ونثرًا، والذي أطنب فيه الكاتبون من أمثال: الجاحظ، وابن عبد ربه، والخطابي، وغيرهم..، من أن الناس فيهم كيت وكيت، وكن منهم على حذر، والمتنبي بأخيلته وشاعريته يسبك هذا المعنى فيقول:

ولما صـــار ودّ النـــاس خِبًّا[4]

جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن أصطفيه

لعلمي أنـــه بعـــض الأنام

(1) الصِّيتة: الصّيت، وهو الذكر الحسن. المعجم الوسيط (٥٤٧/١).

(2) المُزَلج: من لا خير فيه، ولا غَناء عنده. انظر المعجم الوسيط (٤١١/١).

(3) ظعنت: أي سرت وارتحلت. انظر: المعجم الوسيط (٥٩٧/٢).

(4) الخِبّ: الخداع والغش، انظر: المعجم الوسيط (٢٢١/١).

يحب العاقلون على التصافي

وحبُّ الجاهلين على الوَسَام[1]

وثار عندي سؤال: وأنت يا أبا الطيب، ألا يحق لمن يصطفيك للود أن يشك فيك لأنك بعض الأنام؟ ألا يحق أن يفسر ابتسامتك على أنها ابتسامة صفراء، أو ابتسامة مجاملة كما تفعل أنت؟

إن كثيرًا من الناس يسهل عليه أن يقول: الناس والناس، ذهب الناس وبقي النسناس[2].. شوك لا ورق فيه. وهذا قد يكون مقبولاً أن يصدر من أئمة أفذاذ نبلاء، تميزوا بوافر العلم والفضل، وازوروا[3] عن الناس، وتجنبوا كثرة مخالطتهم؛ حفظًا لنفوسهم وأوقاتهم، على نحو ما يذكر عن مالك رحمه الله والخطابي، وابن الجوزي، وغيرهم...، لكنه ليس مقبولاً أن يصبح حديثًا مستطرفًا لكل أحد؛ لأن معناه أن هذا المتحدث عن "الناس" يستثني نفسه منهم، ويرميهم بكل نقيصة؛ لأنه لا يراهم أهلاً لأن يجالسهم أو يعاملهم، وهذا قد يفسّر على أنه نوع من الكبر، وفي الصحيح عن ابن مسعود ﷺ مرفوعًا: **"الكِبرُ: بَطَرُ الحَقِّ**

(1) الوسام : الوسامة وحسن الصورة ، أي أن العاقل يحب لأجل صفاء الود والجاهل يحب على جمال الصورة . انظر شرح ديوان المتنبي ، للبرقوقي (٢٧٤/٤) .

(2) النسناس: خلق في صورة الناس، مشتق من النسنسة وهي الضعف. انظر: لسان العرب (٢٣١/٦).

(3) ازْوَرَّ: عدل الشيء وانحرف. لسان العرب (٣٣٥/٤).

وغَمْطُ الناس "[1].

فيا أيها المتعاظم في نفسه، أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى، أربع على نفسك وتواضع، وانظر في نفسك إلى مواطن النقص لترفأها، ومواطن الخلل لتسدها، وانظر في الناس إلى مواطن الخير والبر لتحسن الظن بالمسلم، وتكتسب منهم عبرة وأسوة في الصالحات، ولا تكن الآخر، فترى عيوب الناس وتنشرها لتخفي عيبك.

قال الشافعي – رحمه الله – :

لسانك لا تذكر به عورةَ امرئ
فكلُّك عــورات وللناس ألسنُ

ونفسك إن أبدَت إليك معايبًا
فصُنها وقل يا عينُ للناس أعينُ

* * *

(1) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

خصومة مفتعلة

لم يطرق سمعي قط سؤال أكثر من هذا السؤال: كيف يُوفِّق الإنسان بين الدعوة، والعلم، والجهاد؟ وبأيها يبدأ؟

إنه تساؤل يولد مع كل شاب جديد، يقرع باب الدعوة في بيئة علمية أو جهادية، ويختصم حوله الكثيرون.

لماذا نجزّئ الإسلام أبعاضًا ثم نضرب أحدها بالآخر؟ ولم لا نهتدي بما كان عليه الصدر الأول، وهم الجيل المثالي القدوة، حيث كان الواحد منهم يصلي الفجر مع النبي ﷺ ليحضر حلقة حتى تطلع الشمس، ثم يغدو إلى حقله ليعمل فيه بيده، ثم يستقبل في المساء أعرابيًا يسكنه معه في داره ويعلمه أصول الإسلام، ومن الغد تراه مكتتبًا في سرية للجهاد. هذا كله دين، وكله إسلام، ولا معنى للتفريق بين هذا اللون وذلك، فكلها أوامر ربانية، ومطالب شرعية.

ولقد تعلموا هذا من المربي الكبير ﷺ ، الذي كان يقول لهم: "**بلغوا عنّي ولو آية**"[1] ، فكان الرجل يقرأ السورة من القرآن ثم يغدو بها إلى أهل بيته فيعلمهم، ثم أهل الحي وربما القبيلة، وهو يرى أن ثمرة ذلك العمل، فيقرؤها بالنهار، ويقوم بها في الليل، ويعمل بها ما وسعه العمل، ولا يرى ناقضًا بين هذا وبين السعي الجاد في الكسب الدنيوي، الــذي لا قوام للحياة إلا به، فتحولت حياة الفرد إلى سياق واحد متصل

(1) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

منسجم، يأخذ بعضه برقاب بعض، فلا تناقض، ولا خصومة، ولا ازدواج. نعم يوجد المتخصص الذي أبدع في شيء، وأكثر منه، وأغنى فيه عن كثيرين ســـواه، وربما شغله ذلك عن بعض الأمر، كما كان خالد ﷺ يقول: "شغلني الجهاد عن القرآن".

وثمة شروط لابد منها : فالداعية -مثلاً- لن يدعو إلى جهل، ولن يدعو إلا لما يعلم من دين الله؛ لأن هذه هي الدعوة. والمجاهد لن يحمل السلاح ويلبس لأْمَته[1]، إلا وهو يعرف الأحكام الضرورية للجهاد، ويدري من يقاتل، ولماذا يقاتل، وكيف يقاتل؟ لكن لم تكن هذه المسائل في حسّ أحد منهم متناقضة أو متعارضة؛ بل كانت تشكل بجملتها نسيج حياتهم وألوان مناشطهم؛ ولهذا لما جاء جبريل يسأل النبي ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فأجابه النبي ﷺ، ثم قال في آخر الحديث: **"فإنه جِبْرَءِيلُ أتاكم يعلمكم دينكم"**[2]. فهذا كله دين وطاعة لله تعالى.

ومن الخطأ أن يجور الإنسان على نفسه فيحرمها بعض أعمال الخير بحجة أو بأخرى، وإذا لم تجد وقتًا كافيًا، فعلى الأقل إياك أن تعيب أو تعتب على من اشتغل بغير شغلك، أو انصرف إلى ميدان سواه؛ بل شُد أزره، وأعنه بسداد رأيك، أو لطيف حديثك، أو صالح دعائك، وحذار

(1) اللأمة: الدرع، أو السلاح كله . لسان العرب (١٢/٥٣٢).

(2) أخرجه البخاري (٤٧٧٧،٥٠)، ومسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وهذا لفظه .

أن يبغتك الشيطان بهاجس يعظّم ما تصنع، ويهوّن من عمل الآخرين، فتزدري طالب العلم؛ لأنه في نظرك منهمك بتفصيل المسائل، متشاغل عن انحرافات المجتمع، معرض عن ميدان الجهاد، أو تزدري المجاهد؛ لأنه في نظرك لم يثن الركب للدرس والتحصيل، وحفظ المتون، ودراسة العلم، أو تزدري الداعية؛ لأنه منشغل مع الشبيبة جيئة وذهابًا، يومًا في المسجد، ويومًا في رحلة، ويومًا في جمعية أو نشاط ما، وقد ألهاه ذلك - فيما زعمت- عن مزاحمة العلماء والتلقي عنهم.

إن كل ذلك خير، وكله مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، وما عجز عن جمعه فيكمل بعضهم نقص بعض، متعاونين على البر والتقوى، كما أمر الله جل وعلا ، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

* * *

أحياناً نفهمها هكذا

يحكم فهمنا للنصوص والقواعد الشرعية -أحيانًا- الرغبة في التحلل من الالتزامات والتكاليف، والميل إلى الترك والتخلي، والتماس العذر للنفس.

فحين نقرأ قوله تعـــالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦]، نحاول أن نعدّ الآية "إعفاءً" من التكاليف، فنحتج بها حين يطلب منا عمل ما نعتذر بأنه ليس في وسعنا ولا طاقتنا، وننسى أن الآية فيها تكليف للإنسان بقدر وسعه كله، وأنها حجة على العبد بضرورة استفراغ الجهد والطاقة في أداء التكاليف الشرعية كافة، لكن الميل إلى إعفاء النفس من الالتزام الشرعي أبصر في الآية التخفيف عن العاجز، وعمي عما فيها من التكليف بقدر الوسع.

ومن العجائب أن مفهوم "الورع"، وهو معنى دقيق يختص به أولو العزم والإيمان من الأئمة والعلماء، الذين لم يقتصروا على فعل الواجب والمستحب وترك المكروه والمحرم، حتى تجاوزوا ذلك إلى ترك ما يلتبس بالمحرم أو المكروه، وكذلك إلى فعل ما يشبه الواجب أو المستحب- هذا المعنى الشفاف الرفيع، أصابه عند البعض ما أصابه، فأصبحت تجد من يتورع عن "فعل الشيء" خوفًا من أن يكون مكروهًا، أو ضارًا، أو سبيلاً إلى ذلك، لكنه لا يتورع عن ترك الشيء للسبب ذاته! أي أن النفوس تميل إلى ترك الأشياء المشتبهة بالمكروه أو الحرام، لكنها لا تميل إلى فعل الأشياء المشتبهة بالمستحب أو الواجب.

كثير أولئك الذين يجتنبون طعامًا، أو شرابًا، أو لباسًا، أو عملاً خيفة أن يكون فيه ما يشين. هذا حسن، لكنك لا تجد الشيء نفسه حين يعرض للإنسان عمل ما من دعوة، أو جهاد، أو إصلاح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو إنفاق في سبيل الله، أو فزعة في أعمال الخير والبر، وقد يلابس هذا العمل ما يجعله مظنة الواجب المتعين على إنسان بعينه، وربما وجدت أعمالاً ليست صريحة الاستحباب، لكن ربما لابسها ما يجعلها مظنة الاستحباب، فلا تجد النفس تميل إلى فعل ذلك المشتبه بالواجب، أو هذا المشتبه بالمستحب، لماذا؟ لأننا أصبحنا نفضل القعود والترك، والتخفيف من الأعباء والتبعات، فيسهل علينا ترك الشيء -ربما- احتياطًا لديننا، لكن لا يسهل علينا فعل نظيره ورعًا واحتياطًا.

إن التعريف الصحيح للورع هو: فعل ما يشتبه بالواجب أو المستحب، وترك ما يشتبه بالمحرم أو المكروه. وفي حديث النعمان بن بشير (المتفق عليه) أن النبي ﷺ قال: **"إن الحلال بين وإن الحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه..."**[1] الحديث. فمن وقع فيما يشتبه بالمكروه ربما جرّه ذلك إلى المكروه ثم إلى الحرام، ومن ترك ما يشبه المستحب، ربما جرّه ذلك إلى ترك المستحب الصريح، ثم ترك الواجب

(1) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) وهذا لفظه، من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

اللازم، خاصة في القضايا العامة: كقضية الدعوة، والأمر، والنهي، والإصلاح.

إن المؤمن الحق يجب أن يأخذ الكتاب بقوة، ويملك الاستعداد للفعل كما يملك الاستعداد للترك. نعم، إن من تقديم طاعة الله أن يتخلى العبد عن محبوبه، إنسانًا كان، أو مالاً، أو وظيفة، أو طعامًا، أو شرابًا، أو أي شيء آخر، وإن من تقديم طاعته تعالى أن يتخلى العبد عن راحته وسلامته، فيؤثر أن يبذل جهده في عمل يبحث فيه عن مرضاة الله تعالى والزلفى إليه، ولو كان في ذلك بعض المشقةوالعناء عليه.

والفعل والترك كلاهما من الدين؛ ولهذا كان أصل الدين الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: فالأمر بالمعروف طلب الفعل، والنهي عن المنكر طلب الكفّ والترك، والأول هو أصل الثاني المقدم عليه.

وإذا كنت في موقف ترددت فيه: هل الدعوة متعينة عليك أم لا؟ فباشرها واهرع إليها كما لو كانت متعينة عليك يقينًا دون شك، وهكذا طلب العلم، أو الأمر والنهي والإصلاح، أو الإغاثة والبر.. والله أعلم.



أشبعه أولاً

لا يملك الإنسان إزاء الأعمال الإسلامية الإغاثية، التي يقوم عليها لفيف من الشباب المتحمس المؤمن إلا الإعجاب، والإكبار، والدعاء، فبصمات هؤلاء الرحماء: في البوسنة حيث طحين الحرب الصليبية في قلب أوروبا، وفي الصومال حيث الإسلام يضرب بجرانه[(1)] في وسط القارة السوداء، وفي طاجكستان، وأفغانستان، والسودان، وأرتيريا، والمناطق المنكوبة في بلاد الإسلام، وهي كثيرة.

فيا أصحاب القلوب الحية، والضمائر اليقظة، جزاكم الله عن أمته وعباده خيرًا، دينكم هذا دين الرحمة، ولقد عجب الصحابة رضي الله عنهم من امرأة سقت كلبًا؛ فشكر الله لها فغفر الله لها، كانت بغيًا هلوكًا فاجرة، فقالوا: "يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟"، فقال ﷺ :"**في كل كبد رطبة أجرٌ**"[(2)]، حتى الكلاب؟ نعم، حتى الكلاب، فما بالك ببني آدم؟ فما بالك بالمسلمين؟ وبعض العجالى يتبرمون من واقع سوء تعيشه الأمة، حيث يوجد من الفساد العقدي والسلوكي ما لا يجحده ذو عقل، ويقول قائلهم: كيف تُجمع الأموال، وتُحشد القوى لمساعدة هؤلاء الناكصين على أعقابهم، التاركين دينهم وراءهم ظهريًا،

---

(1) ضرب بجرانه: استقام وقرّ، كما أن البعير إذا برك واستراح مدّ جرانه (أبي عنقه) على الأرض. انظر: لسان العرب (١٣/٨٦).

(2) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ممن أصبح همهم اللقمة والكساء، والمال والدنيا، ولا يبالون بعد ذلك بشيء؟ وإنني لأعجب من عجب هؤلاء الإخوة، وأضع أمام نواظرهم هذه التساؤلات:

أولاً: الدين الذي أخبر رسوله المصطفى ﷺ أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فماتت، فدخلت فيها النار.. ماذا سيكون حكمه على من قضى على شعب بأكمله في العراق، أو البوسنة، أو غيرهما بالموت جوعًا، ومرضًا، وقهرًا، وأثخن جراحه بحصار مرير؟

ثانيًا: كيف يملك ذو فهم أن يُقبل على جائع يتضور، أو مريض ينشغ[1] للموت، أو عار لا يجد ما يواريه؛ ليقول له: أصلِحْ حالك أولاً، وإلا فأنت محروم من الإغاثة! إن الحكمة تقتضي مساعدته، والوقوف إلى جواره في محنته، ثم التسلل إلى قلبه بالدعوة الصادقة التي تخاطب قلبه وعقله، بعدما سكن روعه، وعادت إليه نفسه.

ثالثًا: لمن يَذهبُ سهم المؤلفة قلوبهم؟ وهو نصيب من الزكاة في كتاب الله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة:٦٠]، وفيهم مسلمون يرجى بعطائهم تثبيت قلوبهم على الدين، وفيهم كفار يرجى إسلامهم، أو دفع غائلتهم عن الدين.

رابعًا: ألست تعلم أنك إن تخليت عن مسلم -فردًا أو شعبًا- فإنما

(1) نشغ فلان: أي شهق حتى كاد يغشى عليه. انظر: المعجم الوسيط (٢/٩٦٠).

تسلمه للمنظمات الكنسية، التي تتفنن في أساليب الإغاثة والتطبيب، وتتخذ من ذلك سلمًا إلى تنصيرهم، وشعارها في ذلك: "احمل العلاج بيد، والإنجيل باليد الأخرى".

خامسًا: ماذا ترى لو وجدت شعبًا وثنيًا يعاني المجاعة، ورأيت لديه إسراعًا إلى الإسلام، ورغبة في الدين، فتألَّفتَ قلوبهم بشيء من المال، أو الغذاء، أو الكساء، ألا ترى هذا من صميم الخلق الإسلامي؟ ومن لباب مقاصد الشريعة؟ ومن أصول ذرائع الدعوة؟

سادسًا: هذه الجموع التي عاشت عشرات السنين في ظل الشيوعية، محرومة حتى من اقتناء المصحف، فضلاً عن قراءته أو فهمه أو العمل به، أو الدعوة إليه أو تحكيمه؛ كيف ستتحول إلى شعوب مسلمة واعية ملتزمة؟ إن الوحي قد انقطع من السماء بوفاة الرسول ﷺ، فلم يبق إلا جهد البشر، فماذا عملتُ أنا وأنت لهؤلاء؛ حتى ننتشلهم من هذه الوهدة الهابطة إلى الأفق الإسلامي السامي الذي ننشده؟ إن الأمر الذي يدهشنا حقًا، هو وجود القلائل المستقيمين الملتزمين في ظل الأجواء الخانقة المدمرة.

أيها الأخ المعطاء الكريم السمح، ألا يكوي فؤادك أن تجد شعبًا عريقًا -كالأكراد- أنجب لنا غرة في جبين التاريخ **"صلاح الدين الأيوبي"** وآل صلاح الدين وهم كثير، ثم تراه مطرودًا تحت كل نجم، ففي العراقِ، وفي تركيا، وفي إيران، وفي سوريا، وفي أذربيجان، وفي

بلاد الغرب كلها، وتجده يعاني في معاقله من التجهيل والحصار المضاعف، ويفتقر إلى أوليات الحياة العصرية، ثم هو ينادي المسلمين أن ابعثوا لنا- على أقل تقدير- طائفة من الدعاة الصادقين، وابنوا لنا عددًا من المساجد، وشيدوا عددًا من المدارس، ولكن لا مجيب. فاللهم غفـــرًا يا عليم، وعذرًا إليكم يا أحفاد صلاح الدين، فالعين بصيرة، واليد قصيرة.

* * *

همومه وهمومي

هذه القطعة الأثرية الرائعة الثمينة، بذل صاحبها في الحصول عليها الكثير من الجهد والمال، فلم يعد من السهل عليه التخلي عنها لقاء مبلغ من المال - قل أو كثر- ؛ فكيف لو تصورنا أن أحدًا أسقطها عمدًا أو سهوًا، فتحطمت أو تهشمت؟ ماذا سيكون موقف مالكها المأخوذ بها؟ وكيف سيكون موقفه - بالتحديد - من ذلك الفاعل؟

التأثر- لا شك- بالغ، والحزن عاصف، والآلام كبيرة، لقد هدم في لحظة ما بناه في سنوات، وفقد أعزَّ ما يملك في هذه الدنيا.. فمن يلومه؟

وهذا الشعور إزاء حدث صغير، يضحك منه من لا يعطون هذه القطعة الأثرية الأهميةَ نفسَها؛ إذ أن مجرد الاهتمام بها أمر يثير السخرية لديهم. أما ذلك الشخص المتسبب، فلن يكون الموقف منه أقل من البغض، والتناول باللسان، والتغريم، وكيف لا يكون الأمر كذلك، وهو الذي فعل ما فعل؟ إنه مهما بلغ صاحب القطعة الأثرية من السماحة، وطيب النفس، إلا أنه يصعب أن ينسى ذلك الموقف الذي تحطمت فيه قطعته أمام عينيه على يد فلان! هذه هموم فعلاً.. ولكنها هموم صغيرة.

نحن نريد نقل الهم إلى القضايا الكبيرة.. قضايا الإسلام والأمة. نريد الحزن ذاته؛ بل أشد.. الحزن المنتج المؤثر المحرك، وليس الحزن السلبي القاتل، ونريد المواقف ذاتها من الهدامين والمدمرين للجهود؛ بل أشد.

إنها مسألة الولاء والبراء، أفيجوز أن يكون "الغضب" لكسر قطعة أثرية أعظم من الغضب لحرب الإسلام، أو حرب شيء من عقائده وشعائره؟! أم هل يجوز أن تكون "البراءة" من محطم القطعة أقوى وأشد من البراءة من أولئك الذين يعلنون الحرب على دين الله بأقوالهم وبأفعالهم؟ إن الشيء الذي يضحي الإنسان من أجله يصبح غاليًا نفيسًا، ويحتل من عقل الإنسان وقلبه مرتبة لا تبارى.

وأمثال صاحب القطعة الأثرية كثير..

هذا المال الذي جمعه صاحبه من قرش وريال، وسهر من أجله الليالي الطوال.

هذه الترقية التي ينتظرها الموظف بفارغ الصبر، ويستميت في الوصول إليها، يعتبر كل من تسبب في عرقلتها عدوًا شخصيًا له، يستحق المقت والكراهية.

هذا الولد الوحيد الذي ليس لأبويه غيره، فهو سرور قلبيهما، وقرة أعينهما، إلى آلاف الأمثلة من واقع الحياة...

وكلها هموم تتراوح بين هَمّ مباح وهَمّ حرام، لكنها تشترك في أنها هموم دون الهم الأكبر، وإن ملأت قلوب أصحابها، وكبرت في عيونهم، وسدت عليهم المنافذ؛ بل حتى ذلك الباحث الذي أفرغ جهده وعمره في إعداد هذا البحث وتنقيحه، أو تحقيق هذه المخطوطة، ربما تكون أخذت من حيز قلبه وحياته أكثر مما تستحق، وربما تحمس للنتائج التي

توصل إليها أكثر مما يجب؛ لأنه لا ينظر إليها نظرة موضوعية متجردة؛ ولكن ينظر نظرة تستبطن الجهد الكبير الذي بذله، وتستحضر تفصيلات الأدلة ووجوه دلالاتها، وتنقض كل ما يعارضها أو يناقضها.

هيهات أن يفكر أحد في "إلغاء" اهتمامات الناس، وتحويلها إلى هم واحد كبير أو صغير، فهذا خلاف الطبيعة الإنسانية، وخلاف مقتضيات الشريعة التي جاءت بتقدير الأمور بقدرها؛ ولهذا فلا تثريب على أحد أن يعطي هذه الشؤون قدرها من العناية؛ بل هو ملوم لو أهملها أو بخسها حقها، ومعاقب على ذلك شرعًا- إذا كانت من الاهتمامات الشرعية- ولكننا جميعًا ندرك أن القضايا الكبرى أولى بمزيد العناية مما دونها، فليست المسائل الشخصية كالمسائل العائلية، ولا هذه كمسائل المجتمع القريب، ولا تلك كمسائل الدولة، أو كمسائل الأمة، أو العالم. وهكذا كل القضايا.. يمكن توزيع فروعها إلى درجات وطبقات متفاوتة، بحسب كبرها وأهميتها، وإمكانية الاستغناء عنها.

إن إعطاء القضايا الكبرى الإسلامية مكانها في القلب والوجدان، وفي العقل، وفي ميدان الحياة حق لا بد من المطالبة به؛ لأنه الدليل على صدق الانتساب لهذا الدين؛ ولهذا قال ﷺ في الحديث: **"مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"**[1]، وفي الحديث الآخر:

(1) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا" وشبك ﷺ بين أصابعه[1].

فهذا المطلب هو الذي يمنح التوازن في القلب، والعقل، والحياة العلمية، للمطَالب والهموم الأخرى؛ فلا تطغى على حياة الإنسان، أو تستأثر بجهده، أو تغلق منافذ عقله وقلبه دون غيرها، إنه جانب من "العدل " الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ.

ومن الظلم الفادح أن يهيج المرء لاعتداء شخصي يسير على نفسه، أو ماله، أو ولده، أو بعض إنجازاته، أو لما يظنه هو "اعتداء"، ثم يواجه اعتداءات ضخمة على أمة بأكملها: على رجالها، أو على تاريخها، أو على مستقبلها، أو على أموالها وثرواتها... بالتهوين، والتقليل، والتجاهل.. وأين هذا من ذلك؟

يبقى أن بعضًا من الناس خلقوا بعقول وقلوب صغيرة، لا تتسع إلا لشؤونها الذاتية، ولا تتأثر لسواها، ومثل هذه لا حيلة فيها، ولكنه "الابتلاء" الذي إذا رآه العقلاء الأسوياء، فقالوا: "**الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً**"[2]. ثم إن هذا الهم الفطري - بالنفس، أو الزوج، أو الولد، أو المال، أو الموقع- يمكن أن يرتبط بالهم الكبير، يمكن أن يكون نهرًا أو جدولاً يصب في ذلك البحر

---

(1) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(2) إشارة إلى ما أخرجه الترمذي (٣٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وقد حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٢٤٨).

أو المحيط، وهذا دأب أصحاب النيات الطيبة، يستحضرونها في تفاصيل حياتهم، فتحول عاداتهم إلى عبادات، وتربطهم بذلك الهَمّ المقدّس، وهُم على مقاعد البحث، وهُم في المركز التجاري، وهم على كرسي العمل، وهم في غرفة العمليات، وهم على فرشهم، كما تربطهم به وَهُم في المسجد، أو في ميدان الجهاد، أو حلقة العلم.

*** * ***

ليبلوكم في ما آتاكم

ماذا يعني تكليف الأمة شرعًا بـــ "إيجاد" طائفة مجاهدة، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر؟ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

يعني- بالدرجة الأولى- مطالبة القادرين والأكْفاء أن يقوموا بواجبهم، فالشباب الذي يأنس من نفسه القدرة على الحفظ والتفقه، والدعوة أو الإصلاح، من خلال منبر، أو موقع، أو مسئولية؛ لا يتخلى إيثارًا للسلامة، أو طلبًا للعاجل، أو انكفاء على نفسه؛ بل ينـــزل للميدان الكبير الذي لازال ينتظر فرسانه، ويتطلع إليهم بفارغ الصبر.

إن كل نعمة منحها الله لعبده هي "ابتلاء" يسأل عنها يوم القيامة، ولكن المشكلة أن الناس يدركون ذلك في عالم "الماديات"، ولا يكادون يدركونه في عالم المواهب والمنن النفسية. فالغني -مثلاً- يعلم أنه مطالب بالإنفاق في سبل الخير مما لا يطالب به الفقير، والقوي قد يدري أن في قوة جسمه حقًا للضعيف والكَلِّ، وقل مثل ذلك في البصير مع الأعمى، والصحيح مع المريض...، ولكن كم من الناس من يشعرون بالمواهب الربانية في عقولهم التي مُنحوها؛ فيستخدمونها لنصر الحق والدفاع عنه؟ وكم من الناس من يوجه نعمة الفصاحة والبيان التي أوتيها للدعوة إلى الإسلام، وفضح أعدائه؟ وكم.. وكم..

أويظن أحدٌ أن حساب الغني يوم القيامة كحساب الفقير، أو أن

حساب الذكي كحساب الغبي البليد، أو حساب الفصيح كحساب العَيي، أو حساب الحافظ كحساب النسَّاء، أو حساب الشجاع كحساب **الجبان، إذًا فليقرأ قوله تعالى:** ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءاتاكم ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وفي الآية تسلسل عجيب:

فالحقيقة الأولى: ﴿ جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾، فالبشر خلفاء استخلفهم الله في الأرض؛ لينظر كيف يعملون، وأصل وجودهم فيها هو لهذا، وهو قدر يشترك فيه جميع المكلفين.

والحقيقة الثانية: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ ، هكذا: درجات؛ لتشمل جميع ألوان التمايز والاختلاف، والتفاوت بين الناس: في أموالهم، أو أجسامهم، أو عقولهم، أو ملكاتهم، أو مواقعهم ومسئولياتهم، وهذه سنة إلهية محكمة ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف:٣٢].

والحقيقة الثالثة: ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءاتاكم ۗ ﴾ ، فهذه " الدرجات" هي ﴿ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءاتاكم ﴾، فكل ما رزقكم الله من المنن الظاهرة أو الخفية فإنما ليبلوكم به: هل تنجحون في تسخير مواهبكم للإسلام، أم تضيعونها هدرًا؟ أم تجعلونها حِرابًا في صدور المؤمنين؟

والحقيقة الرابعة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فإذا استثمر العبد ما منحه الله في معصيته، وتكذيب رسله؛ أسرعت إليه العقوبات في الدنيا والآخرة، وإذا بذل ما يملكه في سبيل الله؛ تجاوز الله عما يحدث منه من سهو أو تقصير؛ لأنه غفور رحيم.

فيا بؤسًا لأولئك الذين ضيعوا عقولهم الكبيرة هدرًا في دراسات عقيمة، لا تنفع في دين ولا دنيا، وما أكثرهم، ويا خسارة الذين طاوعهم البيان فصاغوه قصائد غزل جسدي غير عفيف، أو نظموه عقود مدح لأرباب الدنيا والصولجان! يا حسرة على العباد!

وكم يحز في النفس، ويملأ القلب أسى وكمدًا، أن كثيرًا من ذوي الكفاءات والمواهب البارزة من الصالحين قد عبث بهم الشيطان، وزين لهم القعود عما أوجب الله عليهم، تارة باسم الزهد في المنصب والجاه، وتارة باسم إيثار الخمول والبعد عن الشهرة، وتارة باسم الخوف من الرياء، وتارة بحجة عدم الكفاءة، وأنه يوجد من هو أفضل مني وأجدر. ولو أتيت هذا القاعد المتثاقل، وتسللت إليه بالحديث رويدًا؛ لحدثك عن فساد الأحوال، وقلة الرجال، وكثرة الأدعياء، وخلو الساحة، وتفاقم الخطب، فيا سبحان الله، لمن تركت الساحة إذًا يا عبد الله؟!

ألا ترى أنه صار فرض عين عليك -وأنت تأنس من نفسك قدرة في مجال "ما"- أن تبدأ الطريق، وتدع عنك التعليلات الواهية. أولست تقرأ في صلاتك، وتقول في دعائك: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا

وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤]، فهل يجدر أن يدعو المرء بهذه الدعوة ثم يعمل على خلافها؟

لقد علّمنا الرسول ﷺ أن نبذل الأسباب التي نستطيعها في تحصيل ما نريد، ثم ندعو الله تعالى؛ ولذلك لما أراد الرسول ﷺ فتح مكة، وضع العساكر والحرس على أنقاب المدينة؛ لئلا يتسرب الخبر إلى مكة، وبذل جميع الأسباب المادية الممكنة، ثم توجه إلى الله بالدعاء أن يعمي الأخبار عن قريش، ولما قال ربيعة بن كعب: "أسألك مرافقتك في الجنة"، قال له ﷺ: **"فأَعنِّي على نفسك بكثرة السجود"**(١).

إن ساحة العلم الشرعي، والدعوة، والجهاد، والإصلاح_ تشهد نقصًا شديدًا ينذر بالخطر، ولا غرابة حينئذ في تصدر الأدعياء والمشبوهين والمغموص عليهم بالنفاق، أو -على الأقل- تصدر غير المؤهلين، ممن طُبعوا على حب الظهور!

وإنه لورع عجيب غريب.. أفليس من الورع أن يفعل الإنسان ما يشتبه بالواجب، أو ما يشتبه بالمستحب، فيقوم بالتعليم والدعوة، والخطابة والإصلاح؛ خشية أن يكون شيء من ذلك واجبًا متعينًا عليه؟ أم أننا صرنا في عصر القعود، وأصبحنا نفسر "الورع" بالترك- فحسب- ترك ما يشتبه بالحرام، أو ما يشتبه بالمكروه؟

* * *

---

(1) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ.

بروتوكولات حكماء صهيون

لا أعتقد أن ثمة خلافاً على الأصابع اليهودية القذرة، المتغلغلة في مجالات عديدة من حياة الشعوب والدول، تلك الأصابع التي تهدف إلى غاية محددة هي "الفساد في الأرض"، وهذا هو التعبير القرآني: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ [المائدة:٦٤].

إن استعمال الفعل المضارع في الجملة يدل على التجدد والاستمرار، فليس سعيهم للفساد مرحلة تاريخية انتهت؛ لكنه قدرهم الكوني إلى يوم يبعثون! وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدرات الأمم من خلال كيدهم المدروس، وفي غيبة الوجود الإسلامي القادر على إحباط مؤامراتهم، وفضح ألاعيبهم.

إن العبقرية اليهودية في الهدم والتخريب ليست- فيما أحسب- موضع جدل، تلك العبقرية التي "تستغل " الأحداث لصالحها، فهي لا "تصنع " الأحداث، ولكنها "تستثمرها".. وهذا يجعلها أقل تضحية، وأوفر قوة، وأبعد عن المواجهة التي لا تؤمن عواقبها.

ولليهود وجود مؤثر في الدول الكبرى: اقتصاديًا، وسياسيًا، وإعلاميًا، ولم يكونوا غائبين عن النظامين العالميين: الرأسمالية، والشيوعية، ولا عن الثورات الكبرى في العالم، وثمة عدد غير قليل من المنظمات العالمية التي تسهر على خدمة أهداف اليهود.. أبرزها "الماسونية"، اللغز الذي حير أذهان الباحثين، ثم "الليونز" و "شهود يهوه ".. الخ.

كل هذا ليس موضع حديثنا، لكن ألا يحس الباحث الواعي أن في الأمر نوعًا من المبالغة المقصودة، أو غير المقصودة؟ هذه الصورة الجاثمة في عقول الكثيرين أن اليهود هم الذين يحركون العالم، وهم زعماؤه السياسيون، ومفكروه، ومبدعوه، وهم وهم، وأن الشخصيات المهمة من غير اليهود ما هي إلا "أحجار على رقعة الشطرنج" على حد تعبير وليام غاي كار!

ولم لا نفترض أن اليهود أنفسهم- بحكم نجاحهم إعلاميًا- هم وراء نشر هذه التصورات، التي تجعل خصومهم أسرى وَهْمٍ كبير مُؤَدّاه: أن اليهود قوة خفية لا تقهر، وأخطبوط رهيب متغلغل في جميع الدول؛ ولذلك فإن كل من يتصدى لهم عسكريًا أو فكريًا يتعرض لأقسى الهزائم- فردًا كان، أو مؤسسة، أو دولة-.

إن هذا الكم الهائل من الكتب التي تتحدث عن اليهود، ودورهم الخطير تساهم في تهيئة الجو للتسليم بالأمر الواقع، وتمنح تفسيرًا جاهزًا لجميع الهزائم التي منيت بها الأمة.. الهزائم الحضارية، والعسكرية على حد سواء. إن إحساس الناس بأن "كل شيء" مدبر ومبيت، ومدروس من قبل "الماسونية"، التي أصبحنا نستنشقها مع الهواء الذي نتنفسه، ونتعاطاها مع الطعام والشراب يقعد بهم عن المقاومة، والمواجهة، والجهاد.

وبين يديَّ مجموعة غير قليلة من الكتب التي تتحدث عن هذا "الأخطبوط" المنفوخ:ككتاب "اليهودي العالمي"، وكتاب" بروتوكولات

حكماء صهيون" ، وكتاب "أحجار على رقعة الشطرنج"، والذي تحدث مؤلفه عن "النورانيين"، وهم جماعة سرية جديدة داخل الماسونية، أي خاصة الخاصة! يضاف إلى ذلك عشرات الكتب عن الجمعيات السرية اليهودية.

وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أي عدو آخر، ينتهج سياسة الإرهاب الفكري والعسكري، فمثلاً: أجهزة الاستخبارات العالمية، مثل: "السي آي إيه"، أو ما كان يعرف بـــ "الكي جي بي"، أو "الشين بيت " أو غيرها من مؤسسات التجسس الظاهرة أو المغلقة، أو الجماعات التنصيرية الاستعمارية، أيًا كانت لافتاها كل هذه المؤسسات أصبحت ذات وجود قوي في عدد من المواقع والدول؛ بل وأصبح لها وجود قائم بذاته في أكثر من بلد إسلامي، وأصبحت تفسيرًا جاهزًا لكل حدث.

ويعتقد بعض من يهول شأنها، ويعطيها أكبر من حجمها، أن من يتحدث عنها، أو يفضح خططها، أو يكتب، أو يحاضر فهو مهدد في رزقه وحياته، إذن فليسكت الجميع حفاظًا على أرزاقهم وأرواحهم، إن الله تعالى يقول: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦].

فأمام الإيمان الواثق تنهار جميع المؤامرات، وتفشل جميع الخطط، لكن لابد من نزع عنصر "الخوف " الذي قتل كثيرًا من الهمم، وأحبط كثيرًا من الأعمال، والأحداثُ تؤكد أن "الوهم " قد يقتل! وحين توجد

الفئة المؤمنة الصابرة يتحطم الكيد كله- يهوديًا كان أم غير يهودي- أمام صخرة التقوى ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ [آل عمران:١٢٠].

وهذا لا يعني- بحال من الأحوال- تجاهل قوة العدو أو التقليل من شأنه، حتى لو كان عدوًا حقيرًا، فضلاً عن عدو مدجج، وقديمًا كان الشاعر العربي يقول:

لا تحقــرنَّ صغيرًا في مخاصمــة

إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

لكن من الممكن جدًا أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدو؛ فلا نبالغ في تهويل قوته بما يوهن قوانا، ويفت عزيمتنا، ويسوغ لنا الهزيمة، وفي المقابل لا نستهين به أو نتجاهل وجوده. فرق أي فرق بين من ينكر وجود **"الماسونية"** -مثلاً-، وبين من يعزو إليها كل ما يحدث في الكون.

ولعل ما يُستفاد من الانتفاضة المباركة في فلسطين، تعديل نظرة الكثيرين عن "إسرائيل التي لا تقهر"، فلقد قهرها أطفال ليست في أيديهم سوى الحجارة، وعما قريب لن يقف دور "الحجر" عند هذا الحد؛ بل سيتعدى إلى أن يقول للمسلم: **"يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله"**[1]، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ.

(1) أخرجه البخاري (٢٩٢٦)، ومسلم (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يا رجال الإسلام أين أنتم؟

الكثير من المتحدثين–ونحن منهم– يحسنون إلقاء المسؤوليات على أكتاف الآخرين، فكلمة "يجب" من أكثر الكلمات ترديدًا في أحاديثنا ومناقشاتنا، فالإعلام يستخدمها، والرسميون، والأساتذة، والمعلمون، والآباء، والخطباء، والشباب، والصغار.. والجميع لا ينفك حديثهم عن "يجب... ويجب..! "، لكن لا أحد يسأل نفسه إن كان هو من ضمن أولئك الذين "يجب" عليهم ما يجب، أم إن مهمته تنتهي عند حد "تقسيم" الواجبات على الآخرين، ثم ينام بعد ذلك قرير العين؟!

ألتقي –كثيرًا– علماء أفاضل يفزع إليهم الناس– بعد فزعهم إلى الله– في سائر أمورهم: في فتاواهم، ومشكلاتهم، وأسئلتهم، وشفاعاتهم...، وسوى ذلك من شؤون حياتهم فطالما سمعت من بعض هؤلاء الفضلاء من يقول: يجب على العلماء أن يفعلوا... ويا ليت العلماء... وأتمنى أن يجتمع العلماء ... وأقترح... وأرى...!

حسنًا، فمن هم العلماء؟ ومن الشخصية التي ترشحها لتترجم هذا القول الجميل إلى فعل؟

إننا بحاجة إلى من لا يكون اتجاهه وتفكيره منصرفًا إلى الوسيلة التي يدفع بها المسؤولية عن نفسه، ولكن اتجاهه وتفكيره ينصرف –كلية– إلى التفكير في أمرين كبيرين:

أولهما: ما الشيء الذي يستطيع هو أن يفعله من كتابة، أو مهاتفة، أو مناصحة، أو إفتاء، أو مراسلة ، أو غير ذلك مما هو داخل في حدود مستطاعه، ومما يعتقد هو أن فيه مصلحة للإسلام.

ثانيهما: ما المساعدة التي يطلبها ممن حوله في تغيير المنكر، أو الأمر بالمعروف، فهو لا يسمح للمستطيع بالتخلي عن واجبه بحجة العجز، أو الخوف، أو الانشغال؛ بل يحث على المشاركة، ولو بالشيء اليسير، وهذا مبدأ تربوي عظيم، كان النبي ﷺ يفعله مع أصحابه في المسائل العلمية والعملية: **"تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبهِ ، من صاع بره، من صاع تمره... حتى قال: ولو بشق تمرة "**[1].

أثار شجوني في هذا الموضع أحد الأساتذة، وهو يتحدث عن مشاهداته في الجمهوريات الإسلامية، التي خرجت لتوها من **"الاتحاد السوفيتي "**، ويذكر مجالات العمل هناك: من التبشير بالإسلام، وإقامة المدارس والجامعات، وإنشاء المراكز، والإفادة من الأوضاع الجديدة في الاستثمارات الاقتصادية الإسلامية، وغيرها فقفز إلى ذهني هذا السؤال: من ننتظر أن يؤدي هذه الأدوار؟

الرسميون ؟ هيهات... فهذا ليس داخلاً في دائرة اهتمامهم إلا بقدر ما يحقق من المصالح الذاتية الخاصة.

التجار ؟ هيهات.. فهم مشغولون بتجارتهم، وحتى الغيورون منهم،

(1) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

قد يكونون مستعدين للمساهمة والدعم أكثر من استعدادهم للتفكير والتنفيذ، وأقل القليل منهم من يفكر، ويخطط، وينفذ.

العامة ؟ كلا، فهذا فوق مستوى تفكيرهم، وهم لا يحيطون به علمًا، ولا يقتربون منه فهمًا، فما لهم وله؟

وجولت فكري في أصناف الناس، فلم أر أحدًا يمكن أن ينتدب لهذه المهمة العظيمة ولأمثالها إلا دعاة الإسلام في كل بلاد الإسلام. **فأين دعاة الإسلام؟** منهم المشغول بهموم دعوته المحلية، ومنهم المنفذ غير المفكر ولا المخطط، ومنهم المستغرق في بعض القضايا التي حجبته عما سواها، ومنهم من يرى نفسه موثقًا بالأغلال، لا يستطيع أن يعمل شيئًا بسبب العوائق النفسية التي تقعده عن أي عمل مثمر كبير، فهو يكتفي بالأعمال اليسيرة المضمونة القليلة، ويوهم نفسه أنــه بذلك قــد أدى ما عليه.

وكل همي في هذه القضية أن أفرض على ذهن القارئ هذا السؤال- ولنكن عمليين في إجابته-: من ننتظر إذًا أن يقوم بهذه الأدوار، وينفذ هذه الأعمال التي نراها ضرورية للإسلام والدعوة ؟

كل ما يفعله البعض أن يقترحوا على الآخرين، والاقتراح هو جزء من المشاركة، لكننا بهذا سنجد أنفسنا مع الأيام أمام أناس لا يملكون إلا الاقتراح، الذي يقدمونه ببساطة، ودون دراسة أو تروٍّ، وأمام آخرين تكدّست أمامهم الواجبات والاقتراحات حتى أثقلت كواهلهم، وشغلتهم

عن كثير من المهمات، والمسألة تحتاج من رجال الإسلام إلى لفتة وتفكير.

متى نشعر بالمسئولية المباشرة الشخصية ونتحرك لها بفكر ثاقب، ونستثمر إمكانات العصر، ونسخرها لخدمة الدعوة والدين؟! ومتى ننتقل من مجرد التشاكي والتباكي وتقاذف المسئوليات، إلى مرحلة العمل البنّاء المثمر؟!

* * *

إلى الأخوة الدعاة في الأوساط الكافرة

الذي يقرأ في تاريخ الدعوات، وأسباب نجاحها أو فشلها، يجد أن من أهم أسباب النجاح الذي تحرزه دعوة ما أحد أمرين:

الأمر الأول: الحق الذي تحمله هذه الدعوة: فبقدر ما فيها من الحق، تكون ملائمة للفطرة، قريبة إلى العقل، فسرعان ما تتقبلها النفوس وتسكن إليها؛ ولذلك لما سمع الجن كلام الله تعالى يقرؤه رسول الله المصطفى ﷺ؛ رجعوا إلى قومهم يقولون: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عجباً ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن:١-٢]؛ بل تحولوا مباشرة إلى "منذرين" تتحرك في نفوسهم دوافع الإنذار والبيان والدعوة: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١].

الثاني: ثقة الداعية بدعوته: وإيمانه الراسخ المطلق بأنها الحق الذي لا ريب فيه ، فهنا يتحول إلى قدوة في قوله وفعله ، يتحول إلى "إمـــام" ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]، ولا يملك القارئ لهذه الآية الكريمة إلا أن يقف عند هذه الكلمات الأربع: " أئمة، يهدون، صبروا، يوقنون ".

فلكي نكون دعاة صادقين، وأئمة هادين مهديين لابد من الصبر على الدين، فلا تزحزحنا عنه، أو عن بعض عقائده أو أحكامه استخفافات الذين لا يوقنون، ولابد من اليقين المطلق الذي لا يقبل المراجعة، أو الشك بأنه الحق.

﴿ وَقَالَ الذينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:١٣].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ الذين ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ والذينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نجّانا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعــراف:٨٨،٨٩].

وكما يظهر اليقين في أقوالنا حين نتحدث عن الإسلام بقوة وشجاعة، لا نجمجم[1] في أقوالنا، ولا نداهن، ولا يعنينا ما تكون "ردود الفعل" عند الآخرين، مادمنا ملتزمين بالحق، وملتزمين بالأسلوب الصحيح في حمل الحق والدعوة إليه ونشره، أي: مادام المضمون الذي نعرضه صحيحًا، والطريقة التي نعرضه بها صحيحة أيضًا، فنعطيهم إياها صريحة.. إن هذا الدين دين الله لا يقبل سواه، ومن لم يؤمن فهو من "الكافرين" المخلدين في نار جهنم، متى حصل له البلاغ، وقامت عليه

(1) يُجَمْجِم: يخفي الكلام ولا يبينه انظر: لسان العرب (١٢/١٠٩).

الحجة، ونعلنها لهم واضحة: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة:٤] فكذلك يجب أن يظهر اليقين في أعمالنا، وسلوكنا، وأساليب حياتنا. من يحمل الدين الصحيح، ويثق مما لديه، لا يذهب ليأخذ ما يسقط من موائد الآخرين، وليس صحيحًا أن تكون مجتمعاتنا، وبيوتنا، ومدارسنا، ومؤسساتنا، وأسواقنا وشاشاتنا ميدانًا للمنافسة والسباق على بضائعهم الكاسدة.

وبالتجربة العملية يظهر أن الشاب أو الفتاة، ممن يعيش الإسلام واقعًا عمليًا بين ظهراني المشركين- وقد اضطر للإقامة بينهم- أجدى على الإسلام من مئة خطيب ومتحدث، يدعو إلى الإسلام بأقواله، ويحذر منه بأعماله.

في مدينة "**لورنس**" في الولايات المتحدة الأمريكية، التقينا بمسلم أمريكي، أسلم منذ سبع سنين، وأثنى المسلمون خيرًا على خلقه، وسلوكه، ونشاطه في الدعوة إلى الله، وهو أستاذ في الجامعة. سألنا عن سبب إسلامه ، ولقد كانت فرحتنا كبيرة حين وجدنا في قصته شاهدًا عمليًا، ماثلاً للعيان لما كنا نقوله للدعاة: من ضرورة الاعتزاز بالإسلام في تلك المجتمعات: عقيدة، وسلوكًا، وأحكامًا، وألا نداهنهم، أو نتنازل عن شيء – مهما دقّ – من أجلهم؛ حتى يكون سلوكنا ومنهج حياتنا "يصرخ " في وجوههم.. يدعوهم إلى التأمل، والمراجعة، وإعادة النظر.

كان هذا الرجل قد فقد الثقة بنصرانيته المنحرفة الممسوخة،

المنسوخة، وبدأ رحلة شاقة في البحث عن الدين الحق.. وبحث في ديانات كثيرة فلم يجد فيها غَنَاء، لكنه لم يفكر لحظة في دراسة الإسلام، فقد أسقطه من حسابه منذ البداية، بسبب الصورة الذهنية المشوهة التي رسمتها في عقله أجهزة الإعلام.

ذات يوم رأى فتاة مسلمة تدرس في الجامعة، ملتزمة بحجابها، تتحدى به أمواج التفسخ، والتعري، والانحلال.. ريحانة في وسط النتن. وسأل ، فعلم أنها مسلمة، وأن الإسلام يأمر بالتستر والتصوّن، وحفظ الجسد عن العيون النهمة، والنظرات الجائعة ، فكان يقول: انطباعي السابق أن الإسلام يمتهن المرأة، ويحتقر شخصيتها، لكني أمام امرأة بلغ اعتزازها بشخصيتها مداه؛ حتى استطاعت أن تتميز بملابسها وهيئتها عن جميع أفراد ذلك المجتمع، رغم أنها تعيش في "قلبه "، إذًا فما تلقنه عن الإسلام وموقفه من المرأة غير صحيح. وهكذا كانت تلك "الصدمة" سببًا في إفاقته، ثم قادته أخيرًا إلى الإسلام، وقد اقترن هذا المسلم بالفتاة نفسها التي رآها، وأسلم بسببها.

حتى المقصرون المفرطون يستطيعون بالبقية الباقية لديهم من أخلاق الإسلام أن يدعُوا الناس إليه.

ومن طرائف هذا الباب : أن فتاة عربية مسلمة غير ملتزمة كانت تقيم في "**كندا**"، وتعرفت على شاب كندي نصراني، فطلب منها الزواج فرفضت؛ لأنه غير مسلم، فسأل عن الإسلام فأعطته معلومات

يسيرة، و لم تكترث للأمر- والله أعلم-، ولكنه واصل، وذهب إلى بعض المراكز الإسلامية، وبدأ يقرأ بنهم حتى اقتنع بالإسلام، وامتلأ قلبه به، وظهر على جوارحه وسلوكه، فأعفى لحيته، وبدأ يحافظ على الجماعة، ويقوم الليل.. ثم جاء لصاحبته يطلب يدها، فرفضت وقالت: أنت أصبحت الآن متطرفًا! لكنه لم يلتفت إليها.

لماذا نخجل من ديننا ؟ إن هزيمتنا في معركة عسكرية يمكن أن تستبدل بنصر مظفر في معركة تالية، لكن الهزيمة التي لا نَصر بعدها هي الهزيمة الداخلية.. الهزيمة الروحية !.

* * *

صناعة الموت

العالم اليوم يحتشد في مواجهة المسلمين، ويستعلن بحربهم، وإذا كان الذين يقولون هذا بالأمس، يظنون بأنهم يعيشون "عقدة المؤامرة"؛ فقد أصبح هذا الموضوع اليوم مادة دسمة للعديد من المقالات الصحفية، فضلاً عن الدراسات والكتب.

وليس أدلَّ على ذلك من التطهير العِرقي -كما يسمونه- في البوسنة، أو التهييج الإعلامي ضد المسلمين في جمهوريات آسيا الوسطى، أو التحالف اليهودي -الأمريكي- العلماني ضد المسلمين في فلسطين، أو الحرب المكشوفة في فرنسا ضد ما يسمى بالأصولية المغاربية، أو تداعي أمم الكفر جميعًا ضد ما يسمونه بالخطر الإسلامي، وهذا ما أصبح يعرف بالإسلام غربيًا... إلى عشرات الأدلة، وهي بالنسبة لنا لم تأت بجديد، سوى أنها التأويل العملي لآيات القرآن الكريم:

﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء:٨٩]

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة:٢١٧]

﴿ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عليكم يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف:٢٠].

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ [البقرة:١٢٠]

إن هذا الحصار المبرم على المسلمين من بين سائر الطوائف والأجناس أمر مثير حقًا، فالصرب المتوحشون الذين هجَّروا وأبادوا شعبًا بأكمله، وحُكِم على زعمائهم بأنهم مجرمو حرب، ثم يستقبلون بالأحضان في مؤتمرات السلام، وتعقد لهم الجلسات الخاصة مع الوسطاء الدوليين، حيث تبادُلُ النكات والضحكات على المسلمين، والرهان على زجاجات "الويسـكي" على مدى ما منحت الحلول السلمية للمسلمين!

والهندوس الذين يقتلون المسلمين علانية، ويغتصبون المسلمات، ويستخدمون سياسة الأرض المحروقة في كشمير لا يتحدث عنهم الإعلام العالمي على أنهم إرهابيون أو متطرفون.

أما حفنة قليلة من الشباب المسلم الأعزل فسرعان ما تُلصق بهم التهم، وتُنسب إليهم شتى الجرائم، ويقدمون للأطفال على أنهم رمز الخوف والبشاعة عبر قنوات التلفزة، ولا أحد يشعر بالحاجة إلى دليل قاطع على تهمة يلصقها بهؤلاء.

واليهود الذين يقتلون الأبرياء، ويطلقون النار على الصبية في أرض فلسطين، ويعتقلون الآلاف، ويُبعدون المئات عن ديارهم يَعدُّهم العالم الغربي رمزًا للديموقراطية واحترام حقوق الإنسان!

وأمريكا تُحكِم الخناق على الدول الإسلامية واحدة تلو الأخرى؛ لا لشيء إلا لأن شعوبها مسلمة، والمستقبل للشعوب! فبعد العراق تأتي ليبيا، فالسودان، فباكستان... والبقية تأتي.

لا أحد يجهل ما صنع العراق "الدولة"، لكن مَنْ يجهل- أيضًا- ما صنع اليهود؟ ومن يجهل ما صنع الصرب؟ ومن يجهل ما صنع الهندوس؟ بل ومن يجهل ما صنعت القوات الدولية- والأمريكية منها على وجه الخصوص- بأرض الصومال المسلمة، بحجة "إعادة الأمل "؟

إن هذه الأحوال ستحول الشعوب- ولو على المدى الطويل- إلى مراجل غيظ تغلي على الكافر المستعمر المتبجح، الذي لم يعد يخفي وجهه البشع، و لم تعد تفيد فيه الأقنعة:

ثوب الرياء يشف عما تحتـه

فإذا اتزرتَ به فإنـك عـاري

نعم.. السيل يهدر، والريح تعصف، والبركان يثور، والدهر دول :

دمع السجين هناك في أغلالـه

ودم الشهيـد هنا سيلتقيـان

حتى إذا ما أُفعمت بهما الـربى

لم يبق غيـر تمـرد الفيضان

ومن العواصف ما يكون هبوبها

بعـد الهدوء وراحة الربـان

إن احتدام النار في جوف الثرى

أمر يثيـر حفيظـة البركان

وتتابع القطــرات ينـــزل بعده
سيـــل يليه تدفـــق الطوفان

فيموج يقتلع الطغـــاة مزمجرًا
أقوى من الجبروت والسلطان

إن هذه الحرب الكونية الشاملة، ستحول الشعوب المسلمة إلى مقاتلين أشاوس، وستقلب هذه الحملان الوديعة إلى أسود ضوار، وستضطر المسلمين اضطرارًا إلى الرجوع إلى دينهم، والبحث عن جذورهم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

نعم، نحن نؤمن بالحوار والدعوة بالحسنى، وربنـــا يقـــول: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، ويقول في محاورة اليهود والنصارى– نعم اليهود والنصارى–: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]، ولكن الدفاع عن النفس ، وعن الأرض المغتصبة، وعن العرض المنتهك مشروع في جميع الأديان، ومبرَّر لدى جميع العقلاء.

والشر إن تلقـــه بالـــخير ضقتَ به
ذرعاً وإن تلقـــه بالشـــــرينحـــســـم

والناس إن تركوا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

وليس مقبولاً أن يُحكِمَ القويُّ الوطأةَ على المسلمين، ثم يستكثر عليهم مجرد الصياح!

فقتل علج مشركٍ جريمة لا تغتفر
وقتل شعبٍ مسلمٍ مسألة فيها نظر!

* * *

ماذا تريدون من الجمهور؟

شهد الواقع المعاصر ألوانًا من التمرد على قوى عظمى ليس آخرها الاتحاد السوفيتي، وشاهد الناس الجماهير وهي تحتل الساحات العامة، ويملأ سيلها المتدفق الشوارع الكبيرة، والأحياء، والسهول، والوديان.

كما شاهد الناس تلك السواعد العارية وهي تمتد في الهواء، وتلك الصدور التي أنهكها الاستبداد، وهي تواجه الجنود المسلحين الذين يمتطون صهوات دباباتهم، ويتكئون على قوة النظام والسلطة والقانون، وهذا يمنحهم قوة نفسية تضاف إلى قوة السواعد وقوة السلاح. وبهذه الاندفاعات الجماهيرية المشهودة، تهاوت عروش، وسقطت إمبراطوريات كان يظن بأنها قوى لا تقهر، وأنها معمرة طويلاً طويلاً.

ومع التسليم بوجود خفي لأجهزة المخابرات العالمية في بعض ما جرى، إلا أن هذا الدور يجب أن يكون محدودًا ومحصورًا في قنوات محددة: كالتشجيع والتأييد المعلن وغير المعلن، بما في ذلك التضخيم أو التهويل الإعلامي، ثم في محاولة تسيير الأحداث في الاتجاه الذي يخدم مصالح هذه الدولة أو تلك.

ولعله يمكن الإشارة هنا إلى ما كشفت عنه التقارير الصحفية، من وجود أصابع للفاتيكان بالتعاون مع المخابرات المركزية الأمريكية في أحداث بولندا منذ عام ١٩٨١م، تلك الأحداث التي كانت تمثل بداية المواجهات الجماهيرية في وجه دكتاتورية الحزب الواحد المتسلط "الشيوعية".

إذًا فالدور الرئيس يكمن في غليان الجماهير، وتوجه قناعاتها إلى فساد أحوالها، وضرورة البحث عن حل لها. صحيح أنها في الغالب عمياء يمكن أن يسيرها هذا أو ذاك، ولكنها في الواقع "تفعل"، وتفعل الكثير.

إن من يفلح في مخاطبتها، ويلوح لها بطوق النجاة، ويعدها بحل مشكلاتها، ويهيمن على عقولها وقلوبها يمتلك زمامها، فتذعن له، وتندفع في الطريق الذي يشير إليه، وقناعاتها في الأشخاص والرموز تسبق قناعاتها الموضوعية المبنية على الدراسة، والتأمل، والتفكير، وهذه مسألة يجب أن يفقهها العاملون للإسلام، ويدركوها من شأن العامة في كل زمان ومكان، فهم لن يتحولوا إلى علماء، أو مفكرين، أو دعاة، ولكنهم "أدوات" صالحة نافعة مثمرة متى أُحُسِن استثمارها، وأُحسِن صقلها.

وأهم ما يعنينا من شأنها أن نوصل إليها القدر الضروري من المعرفة الشرعية، والوعي الواقعي، الذي يحصنها دون الاندفاع الأهوج، ويحرسها من السير وراء الرايات المضللة، ويجعلها تعتصم بدينها وإيمانها، ولا ترتضى عنه بديلاً.

وليس يجوز أن يترك أمر الناس للمفسدين الذين يخادعون الناس بزخرف القول، ومعسول الكلام، ويَعِدوُنهم ويمنونهم ــ وما يعدونهم إلا غرورًا ــ فلطالما هتفت جماهير من أهل القبلة –وربما من جمهور المسجد– لشيوعي، أو بعثي، أو ناصري، أو منافق، وهي لا تدري،

وليست هذه الجماهير هي الملومة وحدها- وإن كانت ملومـــة دون شك - ولكن جزءًا كبيرًا من اللوم يجب أن يتجه إلى دعاة الإسلام، وعلمائه، وحملة العلم، الذين تخلوا عن مخاطبة هذه الجموع، وزهدوا فيها، واستصغروا شأنها، وتركوا أمرها- وهي قطاع عريض من الأمة- لغير الراشدين.

ولطالما ردد الكثير عبارات التنقيص لهؤلاء الناس، والتزهيد في أمرهم، وأنهم إن أحبوا لم ينفعوا، وإن أبغضوا لم يضروا، وأن سيوفهم مع أمراء الباطل، ولو كانت قلوبهم مع علماء الحق، وأنهم دهماء همج إلخ.

وهذا إن فهمناه على وجهه، من أنهم لا يستقلون بالفهم والتفكير والاستنباط، ولا يملكون القيم والمعايير الموضوعية السليمة فهو صحيح في الغالب، مع أن لترديد تلك الألفاظ وما شابهها، أثراً سلبياً يستدعي الكف عنها، ولو كان لها وجه صحيح.

أما إن فهمناه على أنهم لا شأن لهم ولا قيمة، فهو خطأ فادح من الناحية الشرعية، والتاريخية، والواقعية.

فمن الناحية الواقعية : مرّ ذكر شيء من أثر توجه العامة من أهل الشرك، والإلحاد، والفجور إلى أمر ما، وقدرتهم على تغيير النظم، وزعزعة العروش، وتحطيم الإمبراطوريات الكبيرة، أفيظن بأهل **"لا إله إلا الله "** أنهم أعجز من أولئك، وأقل أثرًا؟ وهل القوة والبأس والنجدة

حكرٌ على أولئك العلوج[1]؟

ألا إن رجال التوحيد- ولو كانوا من العامة- أكثر رزانة، وأكثر تأملاً في العواقب، ولديهم من الدين ما يزعهم عن كثير من الفعائل التي تدعو إليها الطبيعة لولا خوف الله جل وعلا؛ فلا ينجرون إلى إتلاف مال أو نفس بغير حق، ولا ينساقون إلى تخريب، أو إفساد، أو تدمير بغير بينة من الله وبرهان، ولا يبعد أن يكون مسَّهم في هذا العصر من الوهن والضعف، ومصادرة ولاة السوء لإنسانيتهم وكفاءتهم، ولكن هم مع ذلك على خير كثير.

ومن الناحية التاريخية: فهم وقود الحروب والثورات، والساعد القوي المتين للحضارات والإنجازات، والسواد الأعظم الذي يعتصم به المصلحون- بعد اعتصامهم بالله جل وعلا- في وجه التحديات والمغالبات.. فهم عماد الجيوش، وحراس الثغور.

أما من الناحية الشرعية: فهم بشر مكلفون، مخاطبون مجزيون، ثم هم بعد ذلك مسلمون موحدون، لكل واحد منهم حق المسلم على أخيه، وفيهم الصالحون، والمؤمنون، والمنفقون، والمستغفرون بالأسحار، وفيهم مستجاب الدعوة المغمور، الذي لو أقسم على الله لأبره، وفيهم... يقول الرسول ﷺ:"**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها:**

(1) العُلُوج: جمع عِلْج وهو الرجل من كفار العجم لسان العرب (٢/٣٢٦).

بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم"[1]، وهم جل الأتباع، الذين ذكر النبي ﷺ أنه رآهم حين عرضت عليه الأمم -كما في حديث عمران بن حصين رضي الله عنه في الصحيح - وهم سواد قد ملأ الأفق[2]...

فكيف غفلت- يا عبد الله- عن هؤلاء، وتجاهلت هذا الجمع الغفير الذي ينفع بإذن الله ويدفع؟ شريطة أن تأخذ منه العفو، ولا تثقل كاهله بما لم يتأهل له من جلائل الأعمال والمواقف. فيكفي من أحدهم دعوة صالحة، أو كلمة طيبة، أو درس يحضره، أو عاطفة يبديها، أو درهم يبذله، أو ولد يعينه على طلب العلم، والدعوة إلى الله، أو منكر يمنعه عن أهل بيته ومن له عليهم ولاية، ويكفي منه صلاة جماعة وجمعة يشهدها، وحج ينتدب إليه رغم شغله، وصوم يرشحه لمزاحمة إخوانه على باب الريان، وقبل ذلك كله شهادة يرددها كلما قام وقعد، عقيدة صافية في الله، ودينه، ورسله.

فإذا جد الجد، وعزم الأمر، وتميّزت راية الإسلام؛ فسيكون من بينهم-ولابد- مدافعون أشاوس، يجددون أدوار الجنود المجهولين في تاريخ الإسلام، وفي كل تاريخ.

---

(1) أخرجه أحمد (١٤٩٦)، والبخاري (٢٨٩٦)، والنسائي (٣١٧٨) وهذا لفظه، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(2) إشارة إلى ما أخرجه البخاري (٥٧٠٥) وهذا لفظه، ومسلم (٢٢٠) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

إثارة صحفية

الصحافة اليوم أصبحت فنًا خاصًا له أصوله، ومدارسه، وجامعاته؛ نظرًا لما للصحافة من تأثير كبير على المجتمع. وقد أصبحت المطبوعات الصحفية تتبارى في جذب أنظار القراء، وإثارتهم بكل وسيلة: عن طريق الموضوعات، عن طريق الأخبار والعناوين، وبكل وسائل التجديد في الشكل والمضمون، والإثارة الصحفية بألوانها المختلفة المنضبطة، وغير المنضبطة.

ولذلك تجد الصفحات الرياضية تحتل مكان الصدارة كمًا وكيفًا؛ لأنها تستهوي قطاعًا عريضًا من الشباب، وقُل مثلَ ذلك في صفحات "الفن" و"السياحة"، ولا غرابة أن تجد ما يسمى بـــ "الصفحة الدينية" لا يعدو أن يكون من باب التكميليات، أو الالتزام بالشروط الرسمية المفروضة في بعض الدول.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، إذًا لهانت المصيبة، فالمجلات الإسلامية موجودة لمن يريدها، والكتب، والأشرطة، وغيرها تغني عن هذا "العسل القليل " المدسوس في "سم كثير"!

لكن الكارثة حين تتخصص هذه الزاوية أو الصفحة الدينية- كذا يسمونها- في بلبلة عقول الناس بحجة حرية الرأي، ولهدف الإثارة الصحفية. فهي تطرح للنقاش يومًا الاختلاط بين الجنسين، ويومًا آخر تعدد الزوجات، ومرة تقييد الطلاق، وحينًا المعاملات الربوية، وبينما

يعرض عدد لما يسمى بـــ "اليسار الإسلامي "، يرد في العدد الذي يليه تحقيق عن "الجنّي.. وهل يتلبس بالإنسي؟"، وقد تجد في العدد الثالث هجومًا على من يسمونهم "بالمتطرفين الدينيين" أو "الأصوليين".. وهَلُمّ جَرّا.

ليس يعنيهم: ما طبيعة الموضوع؟ ما أهميته؟ من الذي يتحدث فيه؟ ما هو مردود القارئ من هذه الإثارة؟ كلا، فالذي يعنيهم أمر واحد، هو: موضوع مثير يشغل بال الناس فيتحدثون عنه؛ حتى تروج هذه المطبوعة، وهذا شكل من أشكال التطبيق السيئ لمدرسة الإثارة الصحفية، ولكنه على حساب عقيدة المسلمين وشريعتهم.

وقد تجد عناوين كبيرة يخيل إليك أنها تخفي شيئًا مهمًا، فإذا تفحصتها أو تصفحتها وجدتها مثل السراب.. يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا!

بعضها يأتي على طريقة القصة الطريفة التي تنسب لإحدى الصحف السيارة في مصر، حيث نزلتْ للسوق في أحد الأيام، وفي صفحتها الأولى خبر في موضع بارز يقول: "**انقلاب عسكري في القاهرة**" والتفاصيل داخل العدد! وفِي داخل العدد تجد التفصيل فعلاً، حيث إن الجندي فلان انقلبت به سيارته أو دراجته في أحد شوارع القاهرة.. وسلامات!

وللقارئ الكريم أن يتصور حجم الخطر حين تكون الإثارة الصحفية على حساب الإسلام، وحين تعرض مسلّمات الدين للتشكيك

بهدف الإثارة. ويكون الخطر أكبر حين تدخل بعض المطبوعات "المتخصصة" في شؤون "الإسلام" و"المسلمين " في حلبة السباق المحموم! ثم تفتح ذراعيها اللطيفتين جدًا لأصحاب الآراء الغريبة من حملة الشهادات الرسمية، أو ممن يملؤون بعض الوظائف الشاغرة؛ ليقدموا آراءهم الجديدة للقراء!

ولا مانع -مطلقًا- أن تؤكد للقراء في هذا العدد أن الرِجلين هما الأعلى، وأن الرأس هو الأسفل؛ حتى تستفزهم لتنشر ردودهم الغاضبة في العدد القادم، مثبتين بذلك إيماننا بحرية الكلمة، حيث نشرنا تلك الردود التي تؤكد أن الرأس هو الأعلى! وفي أعداد تالية ننشر بإذنه تعالى ردود "الوسطاء"، الذين يحاولون أن يمسكوا العصا من الوسط؛ ليؤكدوا أن الرأس والقدمين يقعان في المنتصف! المهم أن نثير معركة، وألا تصدر المجلة أو الجريدة وإحدى صفحاتها بيضاء، وما عدا ذلك لا يعنينا في قليل ولا كثير.

ويبدو أن من القراء من استمرؤوا أكل السم، وإن شئت فقل: تعاطي المخدرات! فصاروا لا يتلذذون إلا بتلك الأشياء، وربما تجاوز أحدهم مقالاً مهمًا، أو دراسة واعية، أو أدبًا جميلاً، وذهب يبحث عن تلك الـــ...!

شئنا أم أبينا فأكثر الناس "مقلدون " في جميع مجالات الحياة، كم من التجار من يفكر جيدًا، ويسلك طريقًا جديدًا مثمرًا في تنمية تجارته؟

وكم من الطلاب من يبدع ويفتح الطريق لغيره؟ وكم من الكتاب من يحسن اختيار الموضوع الجديد، ويحسن طريقة عرضه؟ وكم.. وكم..

أكثر الناس يميلون إلى التقليد في أمورهم كلها حتى في ملابسهم، وطريقة بناء بيوقم، فهل من المعقول أن نجعل لهم الحكم في قضايا عقدية وشرعية عويصة وأدلتها متقابلة، وهل يصح أن نزعزع ثقتهم بمسائل مستقرة في نفوسهم من أجل الإثارة.. والإثارة فحسب؟!

إن الكلمة أمانة، والصحفي إذا لم يراع مصلحة قرائه فيما يقدم لهم فقد خانهم، وليس من الحكمة في شيء أن يقول قائل: دع القراء يطلعون على آراء متعارضة في مسألة "الفوائد الربوية"- مثلاً-، ويسمعون كلام هذا وذاك، ثم يختارون ما يشاؤون! في أي شريعة هذا؟

قد يختار الإنسان الأسهل الأخف ما دام هناك من يقول به من المنسوبين إلى العلم، وليس مهمًا هل يملك دليلاً أم لا يملك؟ هل خالف الإجماع أم وافقه؟ هل الفتوى "بريئة" أم "غير بريئة"؟ هل.. هل..

المهم أنه فتح لهم بابًا مريحًا؛ ليستمروا على خطئهم؛ بل و"يستمرؤوا" هذا الخطأ حيث يتحول إلى صواب، ويتهم مخالفوه بأنهم تقليديون وجامدون، ولا يتعايشون مع "الواقع"، وبدلاً من أن نجتهد لتصحيح الأوضاع الفاسدة، يصبح همنا السعي لتسويغها وتثبيتها.

ويُضاعف البلاء أن الأكثرين- حتى من المثقفين؛ بل وفي بعض الأحيان من أصحاب التخصصات الإسلامية أيضًا- يفهمون أن أي

اختلاف في مسألة ما معناه: أن للإنسان الحق أن يختار من الأقوال المتعارضة ما يشاء، ومعناه أن ليس ثمة في المسألة راجح أو مرجوح، وأحيانًا: قوي وضعيف؛ بل وصحيح وخطأ. وهذه من البلايا الشائعة التي سبق أن تحدثت عنها.

فيا معشر الصحفيين، اتقوا الله فيما ولاكم، وراقبوه فيما تقدمون لقرائكم، ويا معشر القراء، اعلموا أنه لا يؤخذ القرآن عن "صُحُفيّ"، ولا يؤخذ العلم عن "صَحَفيّ"[(1)].

أقول هذا القول، وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

(1) الصَحَفيّ: الذي يأخذ العلم من الصحيفة دون المشايخ. المُغْرِب (٤٦٧/١)، والمصباح المنير (٣٣٤/١)، والتوقيف على مهمات التعاريف (٤٤٩/١).

لابد للحق من رجال

على مدار التاريخ كله لم يحدث قط أن أنزل الله تعالى على الناس كتابًا مسطورًا، يقرؤونه دون أن يكون ثمة رسول من البشر يحمله ويبلغه؛ بل كانت سنته تعالى أن يختار ويصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، ويأمر هؤلاء الملائكة بتبليغ الوحي إلى المصطفين من البشر.

وكان الرسول البشري مكلفًا بتبليغ الوحي إلى الناس، وأن يكون هو أول الممتثلين لأوامره وزواجـــره؛ ولذلك كان شعيـــب عليه السلام يقول لقومه: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَاكُمۡ عَنۡهُ ﴾ [هود:٨٨].

وقد ختم المرسلون بمحمد ﷺ ، الذي كان مسك الختام، وواسطة عقد النظام، وكان موته ﷺ يعني نهاية تنـــزيل الوحي على بشر. لقد انقطع بموته خبر السماء، وفي صحيح مسلم أن أبا بكر قال لعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ: "انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها"، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: "ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ "، فقالت: "ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء"، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها" (1).

إنها امرأة فقيهة حقًا، إن فقد رسول الله ﷺ لم يكن سهلاً عليها،

(1) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

كيف وهي حاضنته ومن أقرب الناس إليه، وكان عليه الصلاة والسلام يحبها ويتلطف معها، وكان ابنها أسامة، وزوجها زيد رضي الله عنهما من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، ولم يكن ﷺ بالذي يهون فقده، لكنها نظرت إلى الجانب الآخر، الجانب الذي نظر إليه حسان بن ثابت، وهو يقول في رثاء رسوله الله ﷺ:

فقدنا الوحي والتنـــزيل فينا
يروح به ويغدو جبرئيـــل

ولكن فضل الله أدرك هذه الأمة الممتدة في أحقاب الزمن إلى يوم القيامة، بأن جعل منها "ورثة" يخلفون الأنبياء في العلم والتربية، ويهدون الناس إلى الحق والعدل ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٨١]، إنهم إذًا أمة وليسوا آحادًا معدودين.

وهذا معنى ما بشر به ﷺ في الحديث المتواتر الذي جاء عن واحد وعشرين صحابيًا عن النبي ﷺ أنه قال: **" لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس "**(1)، إنها منارات لا تغيب مهما ادلَهَمّ الظلام، واحلَوْلَكَ الليل.

وهذا إيذان بامتناع هيمنة "الجاهلية" المطلقة على أمة محمـــد ﷺ،

(1) أخرجه البخاري (٧١ ،٣٦٤١،٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ، وأخرجه مسلم (١٩٢٠) من حديث ثوبان ﷺ.

لا يستثنى من ذلك إلا الفترة اليسيرة التي تسبق قيام الساعة، حين يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب[(١)]، حتى لا يدرى ما صلاة، ولا صيام، ولا صدقة، ولا نسك[(٢)].

وحديث الطائفة المنصورة- من جهة- خبر عن أمر قدري آت لا محالة، مهما أرجف المرجفون، وتشكك المرتابون، ولا يشك في هذا أحد؛ لأنه خبر قطعي لا ريب فيه، ولكنه- من جهة ثانية- تكليف شرعي للأمة أن "تكون" منها هذه الطائفة المجاهدة فيه من هذا الجانب، كقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بالمعروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

فالأمة مطالبة شرعًا بتكوين هذه الطائفة، وتمكينها من القيام بعملها، ومباشرة مهمتها الربانية، وما هي مهمتها الربانية؟ أهي البقاء على الحق والالتزام بالسنة- قولاً وفعلاً واعتقادًا- فحسب؟ أم هي القيام بأمر وراء ذلك وفوقه؟ كلا، إن مهمتها أعظم من ذلك.

فإن الفرقة التي تقنع بصلاح نفسها دون أن تنازل الباطل وتقارعه؛ إنما تكون ناجية فحسب ؛ لأنها تجنبت طريق الهالكين من أهل الضلالة.

---

(1) وشي الثوب: نَقْشُه وُحسنه. انظر: المعجم الوسيط (١٠٧٨/٢).

(2) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٨٥٤٢) من حديث حذيفة ، وقال الحاكم: "صحيح على شرط مسلم"، وأخرجه محمد بن فضيل بن غزوان في كتاب الدعاء (١٥) من طريق ربعي بن خراش عن حذيفة ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٨) من حديث ربعي بن خراش عن جده. والحديث صحيح .

أما هذه الطائفة، فلم يصفها الرسول ﷺ بمجرد النجاة والسلامة؛ بل أطلق عليها وصفًا ذا دلالة عميقة، إنه "**الطائفة المنصورة الظاهرة**"، فهي أولاً: "**طائفة**" تلتفّ حول الحق وتدور معه حيث دار، وهي ثانيًا: "**ظاهرة**". ليست خفية مستترة، ولا ضعيفة مهزومة، تخجل من الحق الذي معها فتسكت عنه أو تبدله، وهي ثالثًا: "**منصورة**"، وهذا يقتضي بداهة أنها "مجاهدة "؛ لأن النصر لا يعطى إلا للمجاهدين في ميدان الكلمة، وفي ميدان الدعوة، وفي ميدان السيف.

فهي الواجهة التي تقارع أرباب المذاهب المنحرفة والأهداف التخريبية، وتكشف ألاعيب المتآمرين من صرعى الشبهات أو الشهوات، ومع الصبر واليقين تمنح النصر، ويعطى زعماؤها ومبرزوها وسام "الإمامة"، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]. يقول سفيان : "بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين".

وإذا لم يكن زعماء هذه الطائفة ورؤوسها هم العلماء الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم "ورثة الأنبياء".. فمن يكونون إذًا؟ وإذا لم تكن وراثة النبوة بالعلم الصحيح المستقى من الكتاب والسنة، وبتربية الناس على هذا العلم.. فماذا تكون الوراثة إذًا؟

إنها مهمة العلماء الربانيين، ومن سار على دربهم ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩].

صفر أو ١٠٠٪ (١/٣)

الأحكام العقلية المعتدلة تستطيع أن تستخلص الصواب القليل من ركام الخطأ الكثير، كما تستطيع أن تستبعد الخطأ القليل المغمور في صواب غزير، وهذا من منهج العدل الذي قرره الإسلام.

وحين ذكر الله الخمر والميسر في القرآن قال: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ولما ذكر أهل الكتاب بيّن أن منهم من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائمًا، وفي مواضع: الأمر بأن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، وألا تمنعنا العداوة والشنآن من العدل، فهو أقرب للتقوى.

وهذه القاعدة تكاد - مع الأسف - تغيب في حياة كثير من المسلمين، بما في ذلك خاصتهم. ففي مجال الجرح والتعديل المعاصر تعوّد الكثيرون، إما أن يثقوا بالرجل ثقة مطلقة لا مثنوية فيها، ويقلدوه في الجليل والحقير، وإما أن يسقطوه من الحساب فلا يقبلوا منه صرفًا ولا عدلاً. ومن عجب أنهم -أحيانًا- ينتقلون من النقيض إلى النقيض، فذاك الذي كان بالأمس ملء أسماعنا وأبصارنا، أصبحنا اليوم لا نملك إزاءه سمعًا ولا بصرًا! وهذا من ثمرات الاندفاع العاطفي غير البصير، فإن العاطفة إذا طغت، سريعة التقلب، لا تعرف الاستقرار والثبات.

سمعت أحدهم يقول على لسان طائفة: فلان أخطأ في مسألة كذا؛ فلا نسمع منه شيئًا! حسنًا.. إذًا فأنتم لا تسمعون إلا من المعصومين؟! ومن أين لكم بهم؟! لا سبيل أمامكم إلا أحد سبيلين:

أولهما: ألا تستمعوا من أحد؛ لأنه ما من أحد إلا ويخطئ، قل خطؤه أم كثر، ومعنى ذلك أن تعتمدوا على أنفسكم فلا تنتفعوا بشيخ، ولا تجلسوا إلى فقيه، ولا تسمعوا إلى داع، ولا تقتبسوا من مفكر، ثم من قال إنكم لا تخطئون؟ ولِمَ لَمْ تفترضوا أن المسألة التي تنقمونها على فلان أو فلان أنه هو المصيب، وأنتم المخطئون؟

أما السبيل الثاني: فهو أن تسلكوا مسلك الفرق الضالة، التي اخترعت لها "معصومين "، وإن كانوا في الحقيقة "معدومين"، وجعلت قولهم تشريعًا، والرادّ عليهم رادًا على الله تعالى، وهو على حد الشرك بالله، ولا يستغربن هذا الكلام أحد، أو يظن أنه يستحيل أن يحدث من بعض المسلمين، فإن من الناس من يقول هذا بلسان الحال، إن لم يقله بلسان المقال.

وقد يقولون لك: نسلّم بأن فلانًا ليس معصومًا، لكننا لا نعرف له خطأ على سبيل التعيين والتحديد، أو يقولون: ليس معصومًا، لكنهم يعاملونه من الناحية الواقعية معاملة المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وما خصومات الصراع المذهبي الذي أنهك المسلمين عبر عصور التاريخ، ولا يزال إلى اليوم إلا أثر واحد فقط من آثار هذه العقلية

التسليمية المفرطة! ولا ندري متى يفرق المسلمون بين "تقديس" الأشخاص، وبين "تقديرهم".

إن الشخصيات الكبيرة التي يلتف حولها الناس، عادة تكون شخصيات موهوبة-مهما يكن لها من الأخطاء والسلبيات- وليس العيب في معرفة أقدار هؤلاء والانتفاع بهم، فإن هذا هو الواجب على الأمة تجاه قادتها؛ لكن العيب كل العيب أن تتحول هذه الشخصيات في نفوس كثير من شباب الأمة ودعاتها إلى "قداسات" لا يمس جنابها، وأن تتحول اجتهاداتهم إلى تنــــزيل لا يأتيه الباطل.

ومرة أخرى أؤكد أنَّ أحدًا لا يقول هذا بلسانه، لكن عمليًا هو الوضع القائم في نفوس المعجبين- وما أكثرهم-.

وهذا المعظِّم المهوِّل لا يحتمل نسبة الخطأ إلى إمامه، ومن ثم فهو يقبل أخطاءه على أنها صواب، وأن الذين ردوها لم يفهموها حق فهمها، أو ردوها لنقص علمهم، وقلة بضاعتهم، وحين يقف أمام خطأ لا يحتمل فماذا تكون النتيجة؟ تتحول الثقة المفرطة بهذا المقتدي إلى نوع من "خيبة الأمل "، وينتقل المعجب من الطرف إلى الطرف، حتى إنه ليرد الحق الصراح من فلان الذي خاب أمله فيه! وبذلك تفقد الأمة رموزها، وقادتها، وعلماءها، الذين تستنير بهم في حالك الظلمات.

ولهذا يعجب الإنسان حين يقرأ في تراجم بعض الشخصيات التي طال حولها الجدل، واختلفت فيها وجهات النظر، فيجد أن من الناس

من يصورهم على أنهم كالملائكة طهرًا وسموًا ونبلاً، في حين يصورهم آخرون على أنهم كالشياطين!

والواقع أن الحقيقة -غالبًا- تضيع بين هؤلاء، ولعل كل طرف منهم نظر بعين واحدة، وعبر زاوية واحدة، فأبصر نصف الحقيقة، وغاب عنه النصف الآخر، ثم بالغ في تصوير ما رأى، وهي مبالغة متوقعة من إنسان لم ير من الليل إلا ظلامه، ولا من النار إلا إحراقها، وآخر لم ير من البستان إلا أزاهيره المتفتحة، وظلاله الوارفة.

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ
ولكن عين السُخط تُبدي المساويا

ودون شك فإن ثمة من يتحدثون بدافع الهوى والتجني، دون أن يكون لحديثهم أي علاقة بالواقع، سوى أن الواقع يرفضه وينكره ويأباه، لكن هذا اللون من الحديث لا وزن له ولا اعتبار.

وقع في يدي قبل أيام، عدد قديم من مجلة تحمل عنوان: "**الإسلام وطن**" تصدر من مصر عن إحدى الطرق الصوفية، وتستكتب عددًا من رموز التصوف في بلاد عديدة! وأول مقال في هذه المجلة يحمل عنوان: "**ابن تيمية مجدد فكر الخوارج في القرن السابع الهجري!**"، ويدعي كاتب المقال أن ابن تيمية يكفر الأمة بأجمعها.. وهكذا إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

من كان يخلـــــق ما يقـــ

ول فحيلتي فيـــه قليـــلـــة

لي حيلـــــة فيمـــن ينـــم

وليس في الكذاب حيلـــة

ابن تيمية عندنا إمام، ولكنه ليس معصومًا، بيد أنه استفرغ جهدًا غير عادي في نقد مذهب الخوارج، وردِّه، وتفنيده ... فأين الموضوعية على أقل تقدير؟

وابن تيمية كان مثلاً في العدل والتسامح حتى مع الذين حاربوا دعوته، وآذوه وطردوه، وألَّبوا عليه الحكام، وسجنوه وأحرقوا كتبه، ومع هذا عفا عنهم، و لم يسمح لأحد بالنيل منهم، وسماحته وعدله حتى مع المخالفين – كالصوفية مثلاً – بلغت حدًا لم يستطع حتى الخلّص من أتباعه اللحاق به فيه.

وما أجمل ما قال الشافعي – رحمه الله – فيما رواه يوسف الصدفي، قال: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يومًا في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني وأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ! ألا يستقيم أن نكون إخوانًا، وإن لم نتفق في مسألة ؟!".

* * *

صفر أو ١٠٠٪ (٢/٣)

إذا كان الحديث في مسألة "**الجرح والتعديل المعاصر**" قد استغرق الحلقة الماضية، فإنني أتحدث الآن عن " أعمال الرجال، وتأثير تلك النظرة العاطفية المتذبذبة التي لا تعرف إلا صفر، أو مائة بالمائة.

وبطبيعة الحال فإن الأمر سيقتصر على "نماذج"، وسأعتني بالنماذج التي تمس الواقع.

هذه الثروة الهائلة من الكتب في جميع نواحي المعرفة.. كيف نقومها؟ وكيف نتعامل معها؟

هل يتربى قراؤنا– وخاصة من الشباب– على "الموضوعية" والاعتدال في أحكامهم على الكتب، بحيث يستطيع القارئ أن يأخذ من الكتاب جوانبه الإيجابية التي أصاب فيها، ويدع ما سوى ذلك، أم أن الشباب – أعني كثيرًا منهم– لا يبيعون ويشترون إلا "بالجملة"؟! فإما أن يكون الكتاب كله موثقًا ومعتمدًا، وإما أن يكون خطأ وباطلاً، ونحن أناس لا توسط بيننا !

وصلة الكتاب بالمؤلف عريقة وعميقة؛ ولذا فإن البعض يتعامل مع الكتب من خلال مؤلفيها فحسب، فمؤلفات زيد كلها حسنة ومفيدة، ومؤلفات عبيد كلها على الضد من ذلك. نعم، هنالك مؤلفون غالب ما يكتبونه صالح، وهناك آخرون لا يحسنون إلا الهدم، فلا يأتي من يحتـــج –مثلاً– بمؤلفات أهل الضلالة المحضة.. لا، الكلام في مجال الدراسات

الإسلامية وما يتعلق بها، وغيرها له حديث آخر.

ومن الناحية الواقعية: فإن أي كتاب- غير كتاب الله- لا يسلم من الخطأ والنقص مهما بالغ مؤلفه في تحريره والعناية به. ولعلي أضرب المثل بـــ "**صحيح البخاري** "، وهو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، حتى إن مؤلفه كان لا يثبت فيه حديثًا إلا بعد أن يتوضأ ويصلي ركعتين، ويستخير الله تعالى في إثباته، فضلاً عن عنايته بأسانيده، وتشدده في اختيار الرجال، وتوثيق المرويات، ومع ذلك فثمة مواضع بيّض لها و لم يتمها، وتراجم تحيّر في بعضها الشُرّاح... إلى غير ذلك من الثغرات التي يستعصي على البشر تلافيها والخلاص منها، مهما دققوا وحققوا.

وقد يسوق الإمام البخاري في صحيحه بعض آرائه الفقهية التي هي اجتهاد مأجور، لكن يخالفه غيره، وقد يكون الحق مع هذا أو ذاك. وله رحمه الله عددٌ من الآراء الفقهية هي خلاف ما عليه الجمهور، لعلي أذكر منها -مثلاً- رأيه في جواز قراءة القرآن للجنب، وله الحق - رحمه الله - في اختيار ما يراه راجحًا؛ فهو إمام مجتهد، وفقيه لا يشق له غبار.

لكن متى قال أحد العلماء: إنه يجب اجتناب صحيح البخاري؛ لأنه خالف أئمة آخرين في عشر مسائل أو مئة مسألة؟ بل هؤلاء الأحناف الذين عني البخاري عناية خاصة بالرد عليهم في تراجم صحيحه في الأحكام وغيرها، لم يبخس هذا حق الصحيح عندهم ، فهم كغيرهم يعتمدون عليه ويرجعون إليه، ولهم- كما لغيرهم- جهود في خدمة الصحيح والعناية به .

أقول هذا متعمدًا تجنب الحديث عن المرويات التي انتقدها عليه الدارقطني وغيره، في باب آخر من أبواب الاختلاف الطبعي، وليس ملائمًا محاكمة البخاري على اجتهاد غيره.

فما بال بعض القراء يدعون إلى اجتناب فتح الباري، أو شرح النووي على مسلم — مثلاً —؛ لأن في كل منهما سقطات في أبواب الاعتقاد أو في غيرها؟ أليس بإمكان القارئ —مثلاً- أن يقرأ فتح الباري، ويستفيد من العلم الغزير المدون فيه، الذي لا يجده في غيره حتى قيل: "لا هجرة بعد الفتح"، وهي كلمة قالها الإمام الشوكاني -فيما أعلم-، وعنى بها أن فتح الباري يغني عن السفر في طلب العلم؛ حيث جمع من الفوائد ما لا يحتاج معه الطالب إلى الرحلة، ثم يقرأ معه كتاب"شرح كتاب التوحيد" للشيخ عبد الله الغنيمان (رئيس الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية) ، حتى يتنبه إلى المواضع التى زلّ فيها قلم الحافظ - رحمه الله، وغفر لنا وله -. إنها دعوة إلى:

- أن يكوّن الشاب نفسه تكوينًا سليمًا، بحيث يؤسس قاعدة علميه موثقة من خلال مصادر معتمدة.

- ثم يطلع على ما يحتاج إليه من الكتب والدراسات بروح الباحث عن الحقيقة ، ولا أقول المتبتل في محرابها.

فما وجد مما يخالف الأصول المستقرة لدية ردَّه، وما وجد من إضافة نافعة قَبِلها، ولا يضيره من قالها.

اعمل بعلمي وإن قصرتُ في عملي
ينفعك علمي ولا يضرُرك تقصيري

ولست مع الذين يبالغون في منح حرية القراءة لكل أحد، ولا مع الذين يبالغون في منعها، لكن يختار المرء ما يقرأ؛ فالكتب كثيرة والعمر قصير، ثم إن جمهورًا غير قليل من الناس لا يملكون التمييز بين الغث والسمين، والنافع والضار، وتنطلي عليهم بعض الأساليب؛ فيقعون أسرى فكر خاطئ صور لهم بصورة الحق، أو شبهة بالغ صاحبها في تزويقها، وكساها من زخرف القول فصارت تغر الناظرين.

فعامة الناس– ومنهم قراء ومنهم مطلعون– يجب حجب الفكر المنحرف عنهم؛ حماية لأوقاتهم، وحفظًا لعقولهم من الاضطراب والحيرة، وليس صحيحًا أن كل إنسان يملك التمييز والقدرة على الاختيار الصحيح. ألا ترى أن هنالك مفكرين كبارًا كان عاقبة أمرهم الكفر والإلحاد كالقصيمي – مثلاً –، وآخرون انحازوا إلى بدعة غليظة كالاعتزال، أو غيرها...

فما بالك– إذن– لو مُكّن أهل البدعة أو أهل الكفر من التلبيس على العامة باسم "حرية الفكر والتعبير"، كيف ترى يكون الأمر؟ والمكتبة الإسلامية المعاصرة تزخر بكم هائل من المؤلفات في شتى مجالات: العلم، والفكر، والأدب، والثقافة؛ بل والعلوم الدنيوية النافعة: كالإدارة، والتربية، وعلم النفس، وسائر الفنون والتخصصات... أَيجوزُ في حكم

العدل والنَّصَفِ، الإعراض عن ذلك كله، أو عن بعضه، بحجة خطأ هنا أو زلل هناك؟ ثم نضرب على الأمة طوق العزلة العلمية، والتقوقع الفكري، والانغلاق عن هذا التراث العظيم ؟

* * *

صفر أو ١٠٠٪(٣/٣)

وهَمٌّ ثالث غير الشخصيات، وغير المؤلفات: إنه تقويم الأعمال الدعوية والجهادية. ولو أردنا الحديث عن الجانب التاريخي، والأخطاء في تقويم الدول وأعمالها العسكرية، وغيرها لكان الأمر يخرج بنا إلى ميدان آخر.

إن من أهم ما يعنينا الآن التقويم الواقع، و"التقويم" كلمة تحتمل معنيين كلاهما مقصود التقويم بمعنى النقد وبيان قيمة الشيء، والتقويم بمعنى التعديل والتوجيه، وهما أمران متلازمان يكمل أحدهما الآخر، فلنتحدث إذن عن نماذج واقعية.

الحركات الدعوية الإصلاحية في الأمة كثيرة، وما من دعوة منها إلا وفيها جوانب مشرقة، وأخرى بخلاف ذلك، والذين يعرضون هذه الدعوات هم– غالبًا– أحد رجلين:

– إما متعاطف ومؤيد، فيعرض هذه الدعوة أو تلك على أنها امتداد لدعوة النبي ﷺ دون أي تعديل أو انحراف، وأنها الحركة المرشحة لقيادة الأمة وتجديد الدين، ويتجشم في سبيل هذه النظرة المتفائلة أن يفسر جميع المواقف، والاجتهادات، والأخطاء، تفسيرًا يجعلها في صالح تلك الجهة، حتى لكأنَّ بعضهم يقول:

وهل أنا إلا من غَزيّة إن غوتْ

غويتُ وإن ترشد غزية أرشد!

– أو متحامل لا يرى إلا العيوب، فإن علم شرًا أذاعه، وإن علم خيرًا أوّله تأويلاً ظالمًا يعتمد على سوء الظن بالمسلمين.

إن يسمعوا سبّة طاروا بها فرحًا

عني وما سمعوا من صالح دفنوا

وأتذكر أنني سمعت أحد الشباب وهو ينتقد إحدى الفئات الداعية إلى الله، ويبالغ في ذلك، حتى جاء إلى نطقهم بالشهادتين، ففسره تفسيرًا معينًا يخالف ما عليه المسلمون؛ ليثبت أنهم لا يتفقون مع سائر المسلمين في شيء، مع أنهم طائفة من طوائف أهل السنة، وإن كان لهم أخطاء في المنهج وفي السلوك، فليس المقصود تبرئتهم من الأخطاء جملة، لكن أن لا تنسينا الأخطاء التي نعلمها أن نقرَّ بالصواب والفضل الذي نعلمه.

وبالمقابل تقرأ بعض الدراسات النقدية ، فتجد أنها لا تخرج من إطار التغزل المحض بمحاسن هذه الطائفة أو تلك، وتبرير جميع تصرفاتها وأعمالها واجتهاداتها. ومعنى ذلك أن اجتهادات هذه الدعوة أو تلك، هي الطريق الوحيد لتحقيق المكاسب المنتظرة للإسلام في هذا العصر، علمًا أن تلك الاجتهادات قد تكون مناسبة لزمان ظهرت فيه، أو لمكان وبيئة أثرت في وجودها، ولكنها ليست من الحق المطلق المفترض التزامه بحرفيته في كل زمان، وكل مكان.

ولا شك أن هذا المنهج في غاية الخطورة، فهو حجر للعقل والتفكير عن التحرك والانطلاق، ونوع من "إغلاق باب الاجتهاد" في ميدان

رحيب. وهذه النظرة التي تقف في الطرف المعاكس، لابد أن تحدث نظرة أخرى من الطرف المعاكس تقول: إن هذه الدعوة أساءت للإسلام، وأنها ، وأنها...

ولا تغلُ في شيءٍ من الأمر واقتصدْ
كلا طرفي قصدِ الأمور ذميـــمُ

لماذا لا تدرس هذه الدعوات دراسة معتدلة بعيدة عن العواطف الجامحة لها أو عليها؛ لتستفيد الأمة من صوابها، وتجتنب عثراتها؟ إن هذه الأعمال الدعوية لم تعد ملكًا لأصحابها؛ بل هي جزء من تاريخ الأمة وواقعها، والنظرة المشتطة من جانب تجر إلى شطط في الجانب الآخر، ولا يحفظ الأمة من هذا التذبذب بين طرفين إلا النظرة المعتدلة المنصفة، التي يذعن لها الأكثرون.

ومتى ظهر حسن النية وسلامة القصد، وهو الأجمل والأجدر بالمسلم -ما وجد إليه سبيلاً- فمعناه أن الصواب سعي مشكور، والآخر خطأ مغفور، خصوصًا إذا استفرغ صاحبه الوسع في الاجتهاد، وكان لذلك أهلاً، والاقتصار في النظر على الجانب السلبي يعبر عن شخصية مريضة، منحت نفسها حق "الوصاية" على الآخرين.

وعلى صعيد العمل الجهادي، فلعل أوسع وأقوى حركة في العصر الحديث هي حركة الجهاد الأفغاني. إنها انتفاضة شعب بأكمله ضد تدخل سافر كافر، وقد جددت هذه الحركة الأمل الذي كاد يموت في نفوس المسلمين، وأحيت روح التضحية والبذل لدى الشباب، فصاروا

يتسابقون إلى الميدان ولسان حال أحدهم يقول:

ماضٍ وأعرف ما دربي وما هدفي
والموت يرقص لي في كل منعطف
وما أبـــالي بـــه حتى أحـــاذره
فخشية الموت عندي أبرد الطُّرَفِ

وعندما تنظر إلى موقف المسلمين من هذا الجهاد القائم، تجد المسألة مسألة صفر أو ١٠٠ % عند الكثير. فهناك من ينظر إلى هذا الجهاد على أنه ثورة وطنية بحتة، ويشكك في دوافع وعقائد القائمين على المنظمات الجهادية، أو أنها حركة مدعومة من الغرب في مواجهة التمدد الشيوعي؛ ولذلك فهو يرى صرف النظر عن هذا الجهاد وعدم الاكتراث له.

وما يستطيع أحد أن ينكر أن هؤلاء بشر يخطئون، ولا أن ينكر أن حركة الجهاد واسعة، دخل فيها أطراف من أهل المشارب المنحرفة، ولا أن ينكر تأثير الظروف المحيطة بوجود سلبيات وأخطاء؟ وهل جميع الفئات القائمة بالجهاد على درجة واحدة في مناهجها العقدية والعملية؟ كلا، والاعتدال والعدل يوجب التوازن في النظرة، ووضع الأمور في مواضعها.

أما الطرف الآخر فيرى أن السبيل الوحيد لإعزاز الإسلام هو التوجه حالاً إلى أفغانستان دون تأخير، ولو استطاع البعض أن "يهجّروا" جميع شباب المسلمين إلى أفغانستان لفعلوا. إن الجهاد الأفغاني

المبارك تجربة إسلامية يفخر بها الجميع، لكن الجزم بإيجابية نتائجها ووصولها إلى الهدف المنشود، من غيب الله لا يعلمه إلا الله؛ ولذلك فإن الاستماتة في توجيه الطاقات إليه أمر غير مأمون العواقب، والمبالغة في تعليق الآمال –أيضًا– قد تحدث في المستقبل يأسًا قاتلاً لا مدفع له[1].

وفي مرحلة الوسط بين هذا الطرف وذاك، فإن من الممكن أن تقوم الأمة بفرض الكفاية عليها في دعم الجهاد الأفغاني: بالمال، والعتاد، والخبرات العسكرية والإدارية، والأعمال التعليمية والطبية، وغيرها...، دون أن تغفل عن جهاد آخر يقوم في فلسطين، أو كشمير...، ودون أن تترقب نتيجة عاجلة حتمية، فالله يؤتي النصر من يشاء.

إنه ليس من اتهام الآخرين، ولا من الانسياق وراء نظرية المؤامرة أن نتهم أعداء الأمة الذين يعلنون الحرب عليها وخاصة على دعاتها وجماعاتها التي تعمل على إعداد الأمة للقيام بواجبها الشرعي في الدعوة، والإصلاح، والجهاد بأن أصابعهم وراء كثير من الظواهر الجديدة، التي تحاول وصم الدعوة والدعاة بكل نقيصة، وتشكك في أهداف العاملين للإسلام، ثم تتبنى هذه المقولات الجائرة مراكز البحث والإعلام هنا وهناك، تحت تسميات الدراسة والتحليل والبحث العلمي ثم تتحول إلى مناهج عمل لمواجهة الإسلام تحت مظلة حرب التطرف والإرهاب...

[1] كتبت الكلمة منذ سنين مضت قبل انتهاء الجهاد الأفغاني إلى الحال الذي آل إليه .

وبقية ما في جعبة تلك المراكز المشبوهة؛ بل الكاشحة[1]، ولا غرابة في شيء من ذلك البتة، لكن أن يسير أحد من المحسوبين على الإسلام والدعوة وراء هذه النعرات الخاوية –فهذا ما يصعب فهمه، فضلاً عن تبريره أو تسويغه.

* * *

(1) الكاشح: العدو المبغض. انظر: المعجم الوسيط (٢/٨٢٠).

سياسة الأمر الواقع (٢/١)

سُبِقَ المسلمون في هذا العصر سبقًا بعيدًا في ميادين كثيرة؛ لأن الحضارة المادية الآن في أيدي أمم كافــرة لا تؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، ولا تحرم ما حرم الله ورسوله.

وفي بعض الأحيان "يحاصر" الأعداءُ بإمكانياتهم الهائلة، ومخترعاتهم المذهلة، وخططهم المدروسة نفسية المؤمن، حتى ليتذكر قول الله عز وجل: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ القلوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠،١١].

وسبحان الله، ما أشبه الليلة بالبارحة ! ففي يوم الأحزاب، حيث تكالبت قوى الكفر على المدينة المنورة، وأحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم، ونجم قرن النفاق، وتعالت أصوات المنافقين تقول: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ورسولُه إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٢]، وتقول: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ [الأحزاب:١٣]، وتقول : "إن محمدًا يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يستطيع أن يذهب لحاجته!".

هذا الموقف المنهزم أمام "الأمر الواقع "، والذي كان ينظر إلى الجانب المظلم من الأحداث، تعبيرًا عن دخيلته المطوية على بغض الإسلام، هذا الموقف يقابله موقف آخر مختلف تمامًا: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ ورسولُه وَصَدَقَ ٱللَّهُ ورسولُه وَمَا

زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إنه موقف الأمل الواثق بوعد الله، ووعد رسوله ﷺ، والذي يرى بجميل الظن ما الله صانع، فيعلم أن اشتداد الظلام يعني قرب الصباح.

اشتدِّي أزمة تنفرجي
قد آذن ليلك بالبلــج

هذا الموقف يتكرر دون تعديل يُذكر، فأمام زحوف الحضارة الغازية، وانتصاراتها العلمية والعسكرية، وإغراقها للعالم بألوان وأنماط من النظريات، والدراسات، والأراجيف، والبضائع، والسلع، والوسائل المعينة على الفساد يشعر الكثيرون أن صيحات الإصلاح ما هي إلا صرخة في واد، أو نفخة في رماد!

وإزاء ذلك يذهب البعض إلى أن هذا هو العصر الذي حقت فيه "العزلة"؛ حيث رأينا الشح المطاع، والهوى المتبع، وإعجاب المرء بنفسه، ورأى الواحد منا أمرًا لا يدان له به.

ولست أنكر أن اعتزال الأمر والنهي والدعوة- اليوم وكل يوم- حق على من لا يحسنها، ممن لا يفهم مقاصد الشرع فهمًا صحيحًــا، أو لا يفهم الواقع الذي يواجهه، وكيف يتعامل معه، ولكن يعلم الكثيرون ممن يعانون التعليم الشرعي، والدعوة إلى الله، أن العصر يشهد استجابة لله ولرسوله لا يمكن معها القول بعمومية "إعجاب كل ذي رأي برأيه"، أو القول بأن الحال قد صار إلى أن يدعو الإنسان إلى الله

فلا يجد من يطيعه.

وتذهب فئة أخرى- وهذا هو الأخطر- إلى ضرورة مسايرة الأمر الواقع، ومراعاة الظروف المتجددة عند إصدار الأحكام الشرعية، ومن ثم تصدر أحكامها متأثرة بالواقع المنحرف، والحضارة الغازية المهيمنة، ولا يعوزها أن تبرر مسلكها بأن "الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان "، وتستشهد لذلك بأن "الإمام الشافعي " غيّر كثيرًا من آرائه الفقهية بعد ذهابه إلى مصر؛ ولذلك صار يقال: مذهبه الجديد، ومذهبه القديم.

وتتجاهل أن تغيّر الفتيا الخاصة المبنية على معالجة واقع معين، من الطبيعي أن تتغير بتغير ذلك الواقع الذي بنيت عليه، فحالة الخوف لها أحكامها، وحالة الأمن لها أحكامها، وحالة القوة لها أحكام، وحالة الضعف لها أحكام، وهكذا...، كما تتجاهل- عمدًا أو خطأ- أن الشافعي وغير الشافعي، تتغير بعض آرائه الفقهية كلما اطلع على علم جديد لم يكن حصل له من قبل، وفي تلك العصور كان بكل بلد شيوخ يختصون به، لا يظفر بعلمهم إلا من رحل إليهم.

المهم أنه على مذهب "أسرى الواقع المرّ"، لا معنى لتحريم الفائدة الربوية في وقت أصبح اقتصاد العالم فيه يقوم على الربا؛ ولذلك قرأنا في الصحف فتاوى بإباحة فوائد الإيداع، وشهادات الاستثمار، وغيرها...

وعلى مذهب هؤلاء المنهزمين، لا معنى للتمسك بالتفاصيل الواردة في النصوص الشرعية، والمنظِّمة لشؤون المرأة: في ملبسها، وهيئتها، وحجابها، وعلاقتها بالرجال، وطبيعة عملها ؛ إذ كيف نظل متشبثين

بهذه "القشور" - زعموا- في وقت غزت المرأة فيه الفضاء، وأثبتت قدرتها على دخول مجال السياسة، والحكم، والإدارة، والعلم، وسائر ميادين الحياة...

ولا معنى - على مذهب هؤلاء - للتمسك بالسلوك الإسلامي الشخصي في المظهر واللباس، وأسلوب التعامل، والأخذ والعطاء؛ لأن هذا يخجلنا أمام الشعوب الأخرى، وعندهم لا مانع من استيراد الأنظمة والقوانين الغربية أو الشرقية لتنظيم شؤون الحياة، جريًا مع الظروف والمتغيرات، والمستجدات الدولية والإقليمية.

وما يقال في هذه القضايا يقال: في التمثيل ، والغناء، والموسيقا، والبيوع المحرمة، وموالاة الكافرين وموادتهم قولاً وفعلاً... إلى أمور كثيرة ليس المقصود حصرها؛ بل المقصود التمثيل فقط. ولا يبعد- على هذا- أن يأتي يوم تنشر فيه فتاوى بتوسيع العلاقات المحرمة بين الجنسين اعتمادًا على "نكاح المتعة"؛ لأن تلك العلاقات أصبحت "واقعًا" لا مناص من الاعتراف به في الدول الشرقية والغربية، وهنا يصدق على هؤلاء قول الأول :

. . . .

من كل مسألة بقول إمام

سياسة الأمر الواقع (٢/٢)

مما يمت إلى الحديث السابق بأقوى صلة، الحديث **عن "التراث الفقهي الإسلامي الغني"**، فنحن أمام آراء متنوعة، واجتهادات كثيرة، تدل على ما وصل إليه المسلمون من سعة الأفق، وقوة النظر، والشجاعة في الرأي، وفتح المجال للاجتهادات التي تثري ميدان العلم الشرعي، وتواكب التقدم العلمي والحضاري الذي وصلت إليه الأمة في فترة من فترات تاريخها .

مذاهب فقيهة كثيرة لا يعرف الكثيرون منها إلا "المذاهب الأربعة"، الكثيرون لا يعرفون فقهاء المدينة السبعة، ولا يعرفون الثوري، وابن المبارك، والأوزاعي، وأبا ثور، وابن جرير الطبري، وداود الظاهري، والليث بن سعد، والبخاري، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم...، ولا يعرفون المجتهدين المتمذهبين : كالمزني، وابن المنذر، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف، وأبي يعلى، وابن قدامة، وسواهم...

نحن فعلاً أمام ثروة هائلة طائلة، وتراث خصب، من غير المعقول أن يكون هذا التراث على درجة واحدة من القوة والصحة والسلامة؛ بل فيه الغث والسمين، والخطأ والصواب، شأن اجتهادات البشر جميعًا. والقواعد والأصول الفقهية هي في ذلك كالفروع: فيها السمين والغث، والصواب والخطأ، أبى الله أن لا يتم إلا كتابه.

والسؤال الذي أريد طرحه :

أولاً : هل كل مجتهد مصيب ؟

وثانيًا : هل لنا أن نختار من الآراء المتنوعة كيف شئنا، أم أن هناك "ضوابط " و"معايير" تلزمنا- باعتبارنا مسلمين- ألا نتجاوزها؟

وهما سؤالان في سؤال واحد، وجهان لعملة واحدة - كما يقال-. فإذا كان كل مجتهد مصيبًا، فلنا أن نأخذ من الصواب ما شئنا، ويأخذ غيرنا ما شاء، دون أن يكون لهذا الرأي مزية على ذاك، وسأعرض فهمي للقضية عبر سؤال ثالث يحمل في طياته الإجابة:

لنأخذ مسألة خلافية أصولية- على أنها مثال فقط- ونطبق عليها الرأيين كليهما، إنها المسألة ذاتها، هل كل مجتهد مصيب؟ سيقول المتعجلون من الناس: اختلف فيها العلماء، فمنهم من قال: كل مجتهد مصيب، ومنهم من قال: لا؛ بل المصيب واحد، والبقية مأجورون على قدر نيتهم واجتهادهم، ولكنهم غير مصيبين.

جيد، فلنطبق الرأي الأول على المسألة ذاتها: كل مجتهد مصيب، ولنأخذ بالرأي القائل : إن جميع المجتهدين مصيبون. إذن . . فعلى هذا يجب أن نقول: كل مجتهد مصيب. ونقول في الوقت نفسه: المصيب واحد والبقية مخطئون! لماذا؟ لأنها مسألة فيها قولان كلاهما صواب، وهما قولان متناقضان، كالحركة والسكون، لا يمكن أن يجتمعا معًا، ولا يمكن أن يرتفعا معًا. هل يمكن أن يكون المجتهد مصيبًا ومخطئًا في مسألة بعينها في الوقت نفسه؟ قطعًا: لا.

ومن هذا البرهان علمنا يقينًا أن المصيب لابد أن يكون واحدًا، وأن مخالفيه غير مصيبين، وهذه نتيجة مهمة؛ لأن بعض من ليس لديهم إلمام بالعلوم الشرعية، إذا كثرت عليه الآراء والخلافات، يستوحش أن يختار، ويرجح ويصحح؛ فيجنح-عمليًا أو نظريًا- إلى أن الجميع مصيبون، ولا داعي لتخطئة أحد منهم.

والغريب في الأمر أن هذا الصنف من الناس، إذا اختلفت عنده ظواهر الأحاديث ردها جميعًا بحجة التضارب والتناقض، ولم يحكم بصوابها جميعًا، ثم يجمع بينها بوجه من الوجوه. وما دمنا خلصنا إلى هذه النتيجة وهي: أن المصيب من المجتهدين في المسألة واحدٌ؛ فلنتساءل: كيف لنا معرفته؟

هل نحدده إجمالاً ، فنقول: هو الإمام الشافعي- مثلاً- لأنه قُرَشي مُطَّلبي، والرسول ﷺ يقول: **"الأئمة من قريش"**[١]، ويقول: **"الناس تبع لقريش"**[٢]، أو نقول: هو مالك؛ لأن الرسول ﷺ يقول: **"يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدًا أعلم من عالم المدينة"**[٣]، أو نقول هو أحمد، أو أبو حنيفة؛ لأنه.. ولأنه..؟

(1) أخرجه أحمد (١٢٤٨٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه أحمد أيضًا من حديث أبي برزة الأسلمي(١٩٢٧٨)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٦٩٦٢)، و الضياء في المختارة (٤٤٩) من حديث علي ﷺ، وقد صحح الحديث الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٤٥٢٣)،(٢٧٥٨).

(2) أخرجه البخاري (٣٤٩٦)، ومسلم (١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(3) أخرجه أحمد (٧٩٨٠)، والترمذي (٢٦٨٠)، وابن حبان (٣٧٣٦)، والحاكم (٣٠٧)، وقال الحاكم:" صحيح على شرط مسلم" .

كلا، فهذا "التصويب" الإجمالي لا يتكئ على نقل صحيح، ولا على عقل صحيح، ولا يمكن الحكم لإمام من الأئمة بأن كل ما يقوله حق وصواب إلا إمام الأئمة ﷺ ؛ بل إذا اختلف الأئمة في مسألة على أقوال فالحق حينًا عند هذا، وحينًا عند ذاك.

وكلهم من رسول الله ملتمس
غَرْفًا من البحر أو رشفًا من الديم[١]

وحينًا يكون الحق متوزعًا بينهم، فلدى هذا منه جزء، ولدى غيره أجزاء، وقل مثل ذلك في المسائل المعاصرة التي تختلف حولها اجتهادات أهل العلم والدعوة والإيمان.

وإذا رجَّح لدى علماء الأمة المعاصرين قولاً معينًا؛ بِناء على مستجدات العصر ومتغيراته، فلا مانع أبدًا من اعتبار الحجج الجديدة: طبية كانت، أو اقتصادية، أو فلكية، أو غير ذلك...، دون أن يعني ذلك إلغاء الأقوال الأخرى التي تعتمد هي الأخرى على النظر والدليل.

* * *

(1) الدِّيم: جمع الدِّيمَة وهي: المطر الذي لا رعد فيه ولا برق، ويدوم يومًا أو يومين. لسان العرب (١٢/٢١٩).

ضوابط التصحيح

على حد سواء في الماضي والحاضر : كل من جهل شيئًا أنكره، وسخر ممن يعلمه، وهذه القاعدة تصدق في مجال الشرعيات؛ فكثيـــرًا ما ينكر الإنسان شيئًا لعدم اطلاعه عليه، أو معرفته بدليله.

إن كثرة معاناة "المتخصص" لتخصصه، تعطيه قدرة أكثر على التمييز، والترجيح، والتصحيح، وكم هو مؤسف أن كثيرًا ممن يتحدثون في القضايا الإسلامية العامة لم يصهروا في جو علمي شرعي أصيل. الكثيرون تلقوا "ثقافة" إسلامية عامة فحسب، وهذا محمود -دون شك- من حيث إنه يرسخ إيمانهم، ويساعدهم على التخلص من المواقف الصعبة، لكنه لا يسوغ الخوض في الدقيق والجليل من المسائل دون رويّة.

أمامنا قضية أولية مسلمة لابد من الإذعان لها في بداية الطريق، وهي تتمثل في أن الدين وحي إلهي لا يمكن أن يستقل العقل بإدراكه، ولو كان العقل وحده يستطيع أن يصل بالإنسان إلى الحقيقة الشرعية؛ لما كان لبعثة الرسل، وإنزال الكتب فائدة تذكر. ودور العقل بعد نزول الوحي هو الإيمان به، وفهمه وتطبيقه، ثم الانطلاق في المجالات الدنيوية لاكتشاف المجهول، وعمارة الأرض باسم الله.

ومن هنا يمكن القول : إنّ أول ضوابط التصحيح والترجيح في المسائل الشرعية الكلية والجزئية يتعلق بـــ "النص "، سواء في إثبات النص، أو في إثبات دلالته على المقصود. فإثبات النص يتطلب معرفة

بعلم الحديث رواية ودراية، وضمن هذا الإطار تندرج مجموعة من العلوم المتكاملة: الرجال، والتاريخ، والمصطلح، والعلل، والأسانيد، والتخريج.. الخ. ومن خلال التعامل مع مجموعة هذه العلوم يتمكن الباحث من الحكم على "النص النبوي" بالثبوت أو عدمه، أما النص القرآني فهو بطبيعة الحال غير محتاج إلى هذه المرحلة، باعتبار قطعيته التي ليست موضع جدل عند أحد من المسلمين.

ثم تأتي المرحلة الأخرى وهي : دراسة مدى دلالة النص الثابت على هذه المسألة أو تلك.. إن من النصوص- قرآنًا وسنة- ما يكون قطعي الدلالة لا يحتمل إلا معنى واحدًا، ومنها ما يكون محتملاً، ودلالته على المسألة دلالة ظنية غير قاطعة.

وقد بُلي العلم في كل زمان بمتطفلين يصدرون عن هوى كامن في أعماقهم قد أشربوه؛ فيفسرون النص وفق مفاهيمهم الخاصة، وربما كانوا ذوي عجمة ليس لهم ذوق صحيح، ولا معرفة بلغة العرب؛ فيهجمون حتى على القطعي من النصوص بصورة غريبة، وفي الكتابات المعاصرة من ذلك حمل بعير، وأنا به زعيم.

فلابد من ضبط "الفهم" المأخوذ من النص -إذًا- بضوابط تمنع أن يكون العلم الشرعي كلأً مباحًا لكل من دَبَّ ودرج. لابد أن يكون على ضوء النصوص الأخرى، فلا نفتعل بين النصوص "خصومة" وهمية؛ بل نجمع النصوص ونؤلّف بينها، ونضع كل نص في موضعه الصحيح، أحدها خاص، والآخر عام، وهذا متقدم، وذاك متأخر، وهذا على حال

وغيره ينـــزل على حال أخرى، وهذا مطلق بينما الآخر مقيد.

وبذلك تظهر أهمية معرفة الأصول الفقهية التي تستفاد على ضوئها الأحكام الشرعية، والتي دوّنها العلماء: بدءًا من "رسالة" الشافعي، ومرورًا بمئات الكتب والدراسات المتنوعة ، التي هي نوع من "الاستقراء" الدقيق الضابط لطرائق استخراج الحكم من النص.

وإلى هذا وذاك فإن اللغة هي الجسر الذي يعبر منه المتفقه إلى دلالة النص، سواء بفهم مفرداتها، أو قواعدها وأوجه دلالتها، وقديمًا جنت العجمة على أقوام فقادتهم إلى مفاهيم غريبة يأباها الحس العربي. ويصطحب الباحث معرفته بمقصود الشارع فيما شرع من أحكام حظرًا، أو إيجابًا، أو كراهة، أو استحبابًا؛ إذ المقصود فيها تحقيق مصالح العباد أفرادًا وجماعات، في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وإذا كان من عادة بعض المتسلطين من البشر، أن يُصْدِروا أوامر تعسفية؛ لمجرد شهوة التسلط والطغيان كما هو مشاهد، فإن الله تعالى من أسمائه "**الحكيم**"، والحكمة هي: وضع الأمور في مواضعها، وهو سبحانه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة العباد في الدارين.

وعلم مقاصد الشريعة علم عظيم، كتب فيه المتقدمون والمتأخرون، ولعل أشهر مَنْ كَتَب فيه هو **الإمام الشاطبي** في موافقاته، والتشبع بهذا اللون من المعرفة يجعل تعامل الإنسان مع النصوص واعيًا، فهو يتحرك في ميدان يعرفه، ويعرف معالمه، ومداخله، ومخارجه، دون أن يستقل أمر مراعاة المصلحة بتحديدٍ، بعيدًا عن نصوص الباب.

مدرسة الحيوان

وقع في يدي كتاب نفيس اسمه: "**تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** " للإمام الراغب الأصبهاني، وقرأت فيه لأحدهم هذه العبارة: "تعلمت من كل شيء أحسن ما فيه: من الكلب حمايته على أهله، ومن الغراب بكوره في حاجته ..."[(١)].

وفي كُتب الحيوان -ككتاب الجاحظ، وكتاب الدميري- من أوصاف الحيوان والطير شيء عجيب، يقف الإنسان أمامه مدهوشًا، وهي عمومًا تصب في بحر التعلم من الحيوانات -فضلاً عن الإنسان-.

كما قرأت في كتاب "**العزلة**" للإمام الخطابي تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعـــام: ٣٨]: "عن سفيان بن عيينة أنه قال: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من شبه البهائم، فمنهم من يهتصر[(٢)] اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس[(٣)] كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير (في سوء اختياره ودناءته)...! فكذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، فإذا أخطأ الرجل نفسه، أو حكى خطأ غيره تروّاه وحفظه"[(٤)]

(1) (ص١١٠) .

(2) الاهتصار: الافتراس. انظر: المعجم الوسيط (١٠٢٧/٢).

(3) يَتَطَوَّس: يتزين ويتجمّل. لسان العرب (١٢٧/٦).

(4) العزلة للخطابي(ص ١٥٩).

انتهى كلامه – رحمه الله – وهو عجيب.

ولما وقف الشاعر العباسي علي بن الجهم أمام الخليفة؛ ليمدحه، وكان أعرابيًا على سجيته، قال:

أنت كالكلب في حفاظك للود
وكالتيس في قراع الخطـــوب
أنت كالدلو لا عدمتك دلـــوًا
من عظيم العطا قليل الذنوب

وفي كُتب الأدب، يذكر عن حكيم من حكماء الفرس اسمه: "**بزرجمهر**" أنه سئل: "بم حصلت على هذا العلم؟" فقال: "بصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب". وكثيرًا ما وقف العلماء والزعماء السياسيون، والمصلحون أمام مشهد النحل أو النمل مندهشين، مسترشدين، معتبرين.

ولقد خلق الله تعالى ابن آدم وكرّمه وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولكن اقتباس بعض الأخلاق والخصال مما حولنا من الحيوانات والطير يهدف إلى أمور:

أولها : أن صاحب الهم يربط كل ما حوله بالشيء الذي يعنيه ويؤرقه، فهو يستبطن في داخله الأمر يشغله: علمًا، أو دعوة، أو كرسيًا، أو غير ذلك..، وكل شيء يراه، يحاول أن يستخرج منه العبر التي تشد عزيمته، وتدفعه إلى الأمام. وقد يحدث نقيض هذا.. فالْمُدْبِرُ، والمُتُخَلِّي، والمنهزم،

والمتشائم، وأمثالهم يجدون –هم الآخرون– في عالم الحيوان والطير – فضلاً عن الإنسان– ما يؤيدهم فيما ذهبوا إليه، ويسوغ لهـــم ما اعتقدوه.

ثانيها : أن الاقتباس من هذا المخلوق المنحط في الرتبة عن الإنسان، يدل على فضل الإنسان ذاته في تواضعه وأخذه عمن دونه، وأنه لا يأنف من التقاط الحكمة من طبقات دنيا من المخلوقات، ومن باب أولى فهو يأخذ الحكمة والعلم عن أخيه الإنسان، وإن كان دونه علمًا أو عملاً أو منـــزلة، وقد حكى الله تعالى في كتابه قصة سليمان مع النمل حين قالت نملة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل:١٨]، قال تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل:١٩]، كما ذكر في قصته مع الطير، وبالذات مع الهدهد.. كيف تجرأ أن يقول أمام تهديد سليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢]... إلى قوله ســـــبحانه: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [النمل:٢٧]. فهذا الموقف العظيم لنبي الله مع الهدهد، الذي يدعي بملء فيه أنه أحاط بشيء لم يحط به سليمان، فلم يزد على أنه قال: سننظر، أي سنطلب الدليل والبينة على ما تقول، وكان الهدهد قد جاء فعلاً بخبر يقين عن ملكة سبأ وقومها.

لا بأس إذًا أن ينتفع الإنسان– والداعية على وجه الخصوص– من الجوانب المشرقة في عالم الطير والحيوانات– فضلاً عن عالم الإنسان– ،

ولا مبالغة في القول بأن في عالم الحيوان جوانب مشرقة يفتقدها الإنسان المتحضر ماديًا.. فالحيوانات لا تمتلك أسلحة الدمار الشامل، ولا تسعى إلى ابتزاز ضعفائها بالصورة التي يفعلها الإنسان اليوم، ولا تمارس ألوان الرذيلة والجحود كما يمارس الإنسان العصري، ولا تتمايز فيما بينها بهذه الطبقات الجاهلية كما يفعله البشر؛ بل كما يفعله الكثيرون من المنتسبين إلى الإسلام الآن.

* * *

حدثني الثقة

مهمة الواعظ والخطيب أن يحرك عواطف الناس، ويهز قلوبهم، ولا نفع في واعظ خاوي الضمير، جاف الروح، يتحدث ببرود وجفاف، ويذكر الجنة والنار، والموت والقبر، وكأنه يعرض مسألة في الهندسة، أو في الحساب!

ومتى شعر المستمعون بتفاعل المتكلم مع قضيته، وجديته في عرضها؛ أقبلوا إليه، وتأثروا به، وقديمًا سأل بعض السلف والده: "يا أبت، ما بالك إذا تحدثت أبكيت الناس بكلام سهل قريب، ويتحدث غيرك فلا يبكيهم؟"، فقال له: "يا بني، لا تستوي النائحة الثكلى، والنائحة المستأجرة".

وفي صحيح مسلم من صفة النبي ﷺ، كما في حديث جابر ﷺ: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش، يقول: صبَّحَكُم ومسَّاكُم ..، ويقول: **بعثت أنا والساعة كهاتين**، ويقرن بين إصبعيه: السبابة والوسطى"[(١)].

والعاطفة قاسم مشترك بين جميع الناس؛ ولذلك تجد الذين يستمعون إلى الواعظ أو الخطيب الذي يهز العواطف، يفوقون لأضعاف مضاعفة عدد الذين يستمعون إلى متحدث في قضايا علمية بحتة- أيًا

---

(1) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ، وأخرج قوله ﷺ: "**بعثت أنا والساعة كهاتين**" البخاري (٦٥٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، (٦٥٠٤) من حديث أنس ﷺ، و(٦٥٠٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

كان موضوعها-، لكن مما يحدث كثيرًا أن ينساق الواعظ مع عاطفة الجماهير، فتجره جرًا إلى الاسترسال وراء ما يحرك ويثير؛ رغبة في المحافظة على مستوى التأثر، وعدد الحضور.

مثلاً : إذا تكلم الواعظ في اليوم الأول فوُفِّقَ في الحديث، وحرك القلوب، فبكت العيون، وربما ارتفعت الأصوات اعتبر الواعظ هذا "نجاحًا"، وهو نجاح، وأقل ما يريده هذا الداعية أن يحافظ على هذا النجاح في اليوم الثاني؛ بل هو يريد أن يتقدم خطوة أخرى، وأن يكون التأثر أعظم، خاصة وقد ازداد الجمع، وتهيأت النفوس لاستقبال الخشوع والبكاء والنشيج.. ففي حجب ذلك عنهم نوع من "خيبة الأمل"، وهكذا يسير الداعية أحيانًا في طريق قد لا يكون أراده تمامًا، لكن ماذا يصنع، والناس ينتظرون ويطالبون؟

ولذلك يبرز عند بعض الدعاة شيء من المبالغة المفتعلة في تضخيم بعض القضايا؛ ليعظم وقعها على السامع، ولعل من نماذج ذلك : مسألة القصص والروايات، فالقصص من أكثر وسائل التأثير، وفي القصص القرآني، وما صح من القصص النبوي، وما صح من قصص الصحابة، والسلف الصالح _غَنَاءٌ -وأي غناء-.

ولو أن الدعاة تتبعوا ذلك واعتنوا به، لكان من ورائه خير كثير، ولكن الملحوظ أن من المتحدثين من يؤثر القصص المغرقة في الغرابة؛ لأنها تشد العامة وتعجبهم، ولابد حينئذ أن يتسامح في إسناد القصة،

فيرويها ولو كانت منكرة واهية الإسناد، أو لا سند لها أصلاً، وقديمًا قال محمد بن الحسن: "من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب".

وقد يتعلل البعض بأن هذه رقائق ليس فيها حلال ولا حرام؛ فيتسامح فيها، وهذا ليس هو المشكل؛ إنما المشكل أن تكون هذه القصص والحكايات ديدنًا، وأن يتربى الناس عليها، فيعرضوا عن العلم الصحيح، وعن التفكير الصحيح، وكم من عامي بنى حكمًا شرعيًا لا يقبل المناقشة فيه على حكاية موضوعة سمعها من فلان!

ومما يزيد الأمر إشكالاً، أن بعض الصالحين يحسنون الظن؛ فيروون عن كل من لقوا بحجة أن ظاهره العدالة، ويقول أحدهم: "حدثني ثقة، أو حدثني رجل صالح"، وقد علمنا أن بعض هؤلاء يختلقون القصص والحكايات، ثم يأتون إلى صالح فيه غفلة ممن يقبل "التلقين" فيدس عليه القصة، فيحدث بها على الملأ.

أحد المبتلَين ببعض المعاصي اختلق رواية خلاصتها: أن رجلاً ممن يتعاطى تلك المعصية مات ، فلما وضع في قبره صرف وجهه عن القبلة.. (وهي المعصية نفسها التي يعملها مختلق القصة)، وما مر غير وقت يسير حتى رُويت القصة حُدّث على أنها مشاهدة من بعض الثقات! وكم سمعنا من إنسان يتحدث عن بلد ما بقصص وأخبار عجيبة، ويؤكدها بجميع المؤكدات، ويذكر أنها معروفة مستفيضة، وليس

في الواقع شيء من ذلك.

لا حاجة بنا إلى حشد عدد هائل من قصص المحتضرين، الذين منهم من فعل، ومنهم من فعل، ونذكر عجائب وغرائب؛ وعندنا كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ حسبنا، وإذا أحب المتحدث التنويع- ولابد- فإلى القصص الموثقة المعروفة الأسانيد: كبعض الروايات التي ذكرها الإمام الرَبَعي في كتابه "**وصايا العلماء عند حضور الموت** " وما أشبهه، على أن ينتقي منها ما صح سنده وسلم متنه، وبعد عن التهويل والنكارة.

وإذا أحب الحديث عن القبر وعذابه ونعيمه، فليكتف بسياق الآيات الكريمة التي تجعل المؤمن يقطع بذلك ويجزم به، ثم يسوق من روايات السنة الصحيحة، وأخبارها، وقصصها ـما يليّن القلوب، وليختـر -مثلاً- مما في كتاب البيهقي " **إثبات عذاب القبر**" أو مما في الكتب الستة، أو سواها، أما الاسترسال مع قصص فلان الذي حدث له كذا، وحدث له كذا، وربط إيمان الناس بهذه القصص ـ فهو أمر غير جيد.

ويكفي في إيمان الناس أن يؤمنوا بما في الكتاب والسنة، ويكفي في تحريك قلوبهم قوارع القرآن وزواجره: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

ومما يبرز أهمية ذلك: أن الدروس والمواعظ أصبحت تسجل وتنتقل من مكان إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، وهذا اللون من الحديث إنْ فُرِض جدلاً أنه يلائم فئة من الناس، فإن المؤكد أن من المصلحة حجبه

عن فئات كثيرة.

أليس من المحزن أن البعض ينفعلون عند هذه القصص، وتأخذهم القشعريرة ، وتمر بهم آيات الوعيد التي تزلزل الجبال، فلا تهز منهم وجدانًا، ولا تحرك فيهم عاطفة؟

إن في الأمر خللاً نُساهِمُ نحن -أحيانًا- من حيث لا نشعر في تعميقه، وواجب على الدعاة أن يصححوا الأمر، ويكتفوا بالكتاب والسنة، والروايات المسندة التي يعرف رواتها بأشخاصهم، ويدعوا عنهم الرواية عن "المجهولين " ولو سماهم البعض "ثقات "، فقد يكونون ثقات عنده، ومتروكين عند غيره، والله أعلم.

* * *

فأين قدر العالم؟

قرأت في كتاب **"البيان والتبيين"** للجاحظ أبياتًا لبعض المعتزلة، يمتدح فيها واصل بن عطاء، شيخ المذهب، ويكشف عن قوة شخصيته، وعظيم هيبته في نفوس الأتباع، وتضحيتهم النادرة في طاعته. تقول القصيدة:

له خلف بحر الصين في كل بلدة
إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفلُّ عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر

إذا قال "مروا" في الشتاء تسارعوا
وإن جاء حر لم يخف شهر ناجر(1)

هُمُ أهل دين الله في كل بلدة
وأرباب فتياها وعلم التشاجر

هذا ولم يكن المعتزلة ممن يعنون بتحريك العواطف، ومخاطبة العامة وحشدها؛ ولذلك أستغرب هذا التصوير العجيب لواصل- هكذا أذكر- ومريدوه معه بهذه الطواعية والانقياد العجيب، حيث يغادرون

(1) شهر نَاجِر: هو كل شهر في صميم الحرّ؛ لأن الإبل تنجر في ذلك الشهر أي: يشتدّ عطشها حتى تيبس جلودها. العين (٦/١٠٦).

أوطانهم إلى خلف بحر الصين وإلى بلاد البربر، في البرد أو في الحر، لا يقبل منهم واصل فدية عن ذلك، مهما جلت وعظمت.

لكن الأمر المعروف -بل والمشهود عيانًا- هو تعظيم الرافضة: "ملاليها"، و"سادتها"، و"مراجعها" تعظيمًا يفوق الوصف.. إن جموعًا غفيرة تحتشد خلف أدنى واحد منهم وتتحرك بإشارة إصبعه، ولعلهم- وقد أعطوا أئمتهم العصمة المطلقة- قد أعطوا لعلمائهم شيئًا يشبهها، أو منحوهم منها ملعقة أو ملعقتين، فاستووا أمامهم بَشَرًا يلتقي بالمعصوم خفية، ويأخذ عنه؛ فله من عصمته نصيب.

وأنت قد تجد "المثقف" إذا حُدِّث في قضايا فقهية أو عقدية، كثيرًا ما يقول: اذهبوا إلى (الملاّ) فاسألوه وناقشوه. ولاشك أن ارتباطهم العاطفي بمراجعهم الدينية يفوق ارتباطهم بقياداتهم السياسية؛ ولذلك يقدمون الأول عند التعارض، هذا وهم يأخذون منهم "الخمس" غنيمة باردة، يصرفوها على ما يرون. وقد أعطى هذا "الزخم " شيوخهم قدرة على الإصلاح والتغيير، والأمر والنهي، وفرض إرادتهم على الآخرين، فهي قوة تتضاءل أمامها قوة البندقية، والمدفع، والصاروخ.

ومما لاشك فيه، أن في هذا المنهج تبعية تنسحق تحت وطأتها قيمة الفرد، وتمحي شخصيته، فليس له رأي ولا اختيار، سوى أن يهتف مع "الهتافة"، ويمشي مع التيار، وإلا فهو الانتحار. وهذه الفردية تؤدي إلى كوارث لا يعلم مداها إلا الله، فليس هذا المسلك مما يحمد أو يمدح

بحال، ولكنني أعرضه لأعرض إلى جواره موقف بعض أهل السنة من علمائهم- خاصة في العصور الأخيرة-.

إن علماء السنة هدف للسهام المنهالة عليهم من كل جانب، فلسان حالهم يقول :

ولقد أراني للسهام رديئـــة

مِنْ عن يميني تارةً وأمامــي

ففي أكثر من بلد إسلامي تتعمد بعض الصحف الإساءة إلى العلماء، وقد تصورهم بعض وسائل الإعلام أنهم "دراويش "، و"أكالة"، و..، و..، و..، وكثيرًا ما يتحدث الناس عن عالم له قدره ومكانته، فيبحثون عن عيب يلصقونه به: إما مداهن، أو متكسب، أو مغفل...، وقد يكون الواقع أنه نقيض ذلك: جرأة في الحق، وتقللاً من الدنيا، وسدادًا في الرأي، فإذا لم يجدوا شيئًا يعيبه قالوا : أولاده غير صالحين .

وحين يتحدث بعض المبتدئين في الطلب عن عالم من العلماء يقلل من قدره، ويتحدث عنه وكأنـــه "زميل"، وقد يهـــون عليه التعبير بـــ:" فلان هين"، "أخطأ فلان ".. ويتجرأ بعض من لم يرزقوا فقهًا، ولا تربّوا على أخلاق الكتاب والسنة، فإذا سمع ذكر فتوى لأحد الأئمة لا ترضيه تلا قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] مع كون هذه الفتوى صوابًا، أو على الأقل مدعومة بدليل ظاهر من الكتاب والسنة، فيخذلهم هؤلاء وأولئك، ثم يقولون : لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يحتسبون على

الأكابر، ونسوا قول القائل:

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم

نطقت.. ولكن الرماح أجرّت

نعم ، لو أنطقناهم نطقوا.. إن العامة هم قوة العالم وسلاحه، فإذا خذلوه صار حاله كما قيل: كساع إلى الهيجاء بغير سلاح.

إن علماء السنة لازالوا بخير- إن شاء الله-، ولا يخلو عصرٌ من قائم لله بحجة، ولازال فيهم عدد- وإن قل- يعطون ولا يأخذون، وحالهم مع الناس كما ذكر الذهبي عن شيخ الإسلام : "أما العامة فهو منتصب لخدمتهم ليلاً ونهارًا، بلسانه وقلمه ". إنا نفاخر الأمم بهذا الطراز الفريد من البشر، فليأتونا بمثلهم إن كانوا صادقين.

أولئك آبائـــي فجئني بمثلهـــم

إذا جمعتنا- يا جرير- المجامـــع

وحري بالأمة- علماء وطلاب علم وعامة- أن تلتف حولهم، وتحمي ظهورهم، وتمنحهم من التبجيل ما هم له أهل.

ولست أنكر أن الآونة الأخيرة شهدت إقبالاً جيدًا على العلماء، ورغبة في الأخذ عنهم، حتى إنك لتجد المحاضرة أو الدرس الشرعي يحضره مئات بل ألوف، وتعقد محاضرة أدبية، أو صحية، أو رياضية فلا يتجاوز الحضور أصابع اليدين أحيانًا، ولكن الأمر لايزال دون المطلوب،

ولايزال بعض الشداة يطلقون ألسنة حداداً في أعراض الأئمة والدعاة والعلماء، ولهؤلاء نقول:

أَقِلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم

أو سُدوا المكان الذي ســـدوا[1]

ولازال الحديث عن هؤلاء وأولئك لما ينتهِ بعد..؛ فلهذه الزاوية مع الصنفين وقائع ومنازلات- إن شاء الله-.

* * *

(1) البيت للحطيئة. انظر: الأغاني (١٩١/٢).

رأيت فيما يرى النائم

في إحدى السنوات -كما يروي الفقيه الشافعي **"القاضي حسين "** تراءى الناس الهلال- هلال رمضان- فلم يروه، فجاء رجل إلى قاضي البلد يقول له: "لقد رأيت الرسول ﷺ البارحة في المنام، وأخبرني أن الليلة من رمضان، وأمرني والمسلمين بالصيام!"، فقال له القاضي: "إن الذي تزعم أنك رأيته في المنام، قد رآه الناس في اليقظة جهارًا نهارًا، وقال لهم: **صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته..!**[1] ، فلا حاجة بنا إلى رؤياك".

كم نحن بأَمَس الحاجة إلى فقه هذا القاضي. من مدة شاع في أوساط الفتيات رؤيا خلاصتها: أن فتاة رأت رسول الله ﷺ في المنام، وقال لها: إن الساعة سوف تقوم قريبًا، وعلامة ذلك أن تفتحي مصحفًا قديمًا فتجدي فيه شعرة أو ورقة ممسوحة! وكان أثر الرؤيا المختلقة أبلغ عند الجهلة من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب:٦٣].

وبعدها تحدثت في إحدى الكليات، فبعثت إحدى الأخوات بورقة مكتوب فيها القصة التالية: مرضت فتاة مرضًا شديدًا أعيا الأطباء، وفي ذات ليلة بكت حتى جاءها النوم وهي على تلك الحال، فرأت السيدة زينب ! فوضعت في فمها شيئًا من القطران، وطلبت منها أن تكتب هذه الرواية ثلاث عشرة مرة، وتطلب من الناس أن يكتبوها،

(1) الحديث المشار إليه في القصة أخرجه البخاري (١٩٠٩)، ومسلم (١٠٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلما استيقظت الفتاة وجدت نفسها قد شفيت من المرض تمامًا، وقامت بكتابة الورقة ثلاث عشرة مرة ووزعتها، فحدث التالي:

- أول ورقة وقعت في يد رجل فقير، فكتبها ثلاث عشرة مرة ووزعها؛ فجاءته أموال طائلة بعد ثلاثة عشر يومًا!!

- والورقة الثانية وقعت في يد غني فمزقها؛ فذهبت أمواله كلها بعد ثلاثة عشر يوما.

- والورقة الثالثة وقعت في يد رجل على رأس عمل كبير فسخر منها؛ ففصل من العمل بعد ثلاثة عشر يومًا.

تقول الرواية: فعليك أخي المسلم، أختي المسلمة، أن تقوما بكتابة هذه الورقة وتوزيعها؛ لتنالا من الله كل ما تحبان في إرادته.

وذكرتني هذه "الخرافة" السخيفة بخرافة **"وصية الشيخ أحمد"**، التي تعاود الظهور مرة بعد أخرى، بصورة تؤكد أن وراء الأمر شيئًا! كما ذكرتني بمقال كنت قرأته في بعض "مجلاتنا" عن "لعنة الفراعنة"، والتي يزعمون أنها تلاحق كل من ينال الفراعنة ومقابرهم بسوء. فهذا ركل جمجمة أحدهم فانكسرت رجله، والذي اكتشف إحدى المقابر سقطت به الطائرة، وفي الليلة التي اكتشفت فيها المقبرة انطفأ التيار الكهربائي عن القاهرة.. الخ.

إنه نوع من الإرهاب الفكري المدمر.. لا تستخدم عقلك ولا تناقش

لئلا يصيبك ما أصاب هؤلاء، واحذر أن تمزق تلك الورقة "الأسطورة" لئلا تفقد عملك، أو تفقد مالك، وربما تفقد دينك- هكذا يزعمون-!

إن الوحي قد انتهى فلا يتنزل على أحد بعد النبي ﷺ، ومع ذلك فإن من المسلمين من يشرّعون تشريعات جديدة لم ترد في الوحي، ويحذّرون من يخالفها بالعقاب والعذاب، ويبشرون من يفعلها بالتوفيق.. فكيف تنطلي هذه الألاعيب السخيفة على مسلم قرأ في التنزيل: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣].

إننا نعلم يقينًا أن الإنسان قد يترك أعظم شعائر الدين العملية، وهي الصلاة، ومع ذلك يظل مرزوقًا معافى في دنياه؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء ولا حساب، والأصل أن الجزاء والحساب في الآخرة؛ بل نجد قومًا كفارًا لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ومع ذلك وسّع الله عليهم في الرزق، وأعطاهم من العلم المادي، والحضارة المادية ما لم يعط غيرهم؛ فالدنيا دار بلاء وليست دار جزاء.

فكيف يأتي من يستخف بعقول بعضنا ويزعم أن من لم يفعل كذا أصابه بعد أيام معدودة ما يكره، ومن فعله لقي ما يحب، وهذا الفعل المطلوب ليس واجبًا ولا مستحبًا؛ بل ولا مباحًا؛ إنما هو بدعة منكرة، وخرافة غليظة.

ثم لنتساءل : هل هذه الكتابة "عبادة" أم أنها "عمل دنيوي محض"؟

فإذا كانت عبادة فهي مردودة؛ لأن الإنسان أراد بها الدنيا، وحفظ المال والوظيفة والصحة، والله تعالى يقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥،١٦]. فهو عمل حابط باطل جزاؤه النار.

وإذا كانت عملاً دنيويًا، فهي أيضًا مرفوضة؛ لأنها ليست من الأسباب المادية، والذي يريد المحافظة على الوظيفة عليه ألا يتأخر عن وقت الدوام، وأن يؤدي مسئولياته، وأن يحسن استقبال المراجعين، ويبني علاقته مع رؤسائه على أساس صحيح. وهكذا حفظ المال والصحة وغيرها، له أسبابه المادية المعروفة، وليس هذا العمل منها بحال.

ثم لماذا رقم "ثلاث عشرة"؟ الإنجليز -والنصارى عمومًا- يتشاءمون من هذا الرقم؛ لأن يهوذا الذي خان المسيح هو التلميذ الثالث عشر، ولديهم أساطير كثيرة مرتبطة بهذا الرقم، فهل لهذه الرواية المختلقة الموضوعة علاقة بذلك؟ لقد جاء في الشرع الذكر مرة واحدة، وثلاث مرات، وسبع مرات، وعشر مرات، ومائة مرة، أما ثلاث عشرة مرة، فليس لذلك نظير في الشرع مطلقًا.

وأخيرًا: من الذي يروي هذه الأكذوبة الملفقة المخترعة؟ فتاة مريضة؟ ومن هي؟ ومن يقول: إنها صادقة؟ ومن يروي عن هذه الفتاة؟

إنها رواية مسلسلة بالمجهولين والكذابين والأفاكين، وهؤلاء لا تقبل شهادتهم على بَصَلة فما دونها، فكيف تقبل روايتهم في أمر كهذا؟!

وحتى لو كان الرواة مظنونين من أساطين الثقات، فإنهم إذا حدثوا بمثل هذا الكذب البواح سقطت عدالتهم، وذهبت الثقة بهم، وتركوا، ووجب ردعهم وتعزيرهم، ومنعهم من التغرير بعقول السذج والبلْه، والله المستعان، وأنى لأساطين الثقات أن يحدثوا بمثل هذا؟

* * *

ورأيت أيضًا

مـــا أجمـــل الحادثة التي يذكرها المترجمون عن الإمام "**عبدالقادر الجيلاني** " أنه كان نائمًا، فرأى نارًا عظيمة تتصاعد، ثم سمع منها صوتًا يقول له: "يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أحللت لك ما حرمت عليك!"، فقال الشيخ عبد القادر وهو في المنام: "إخسأ يا عدو الله!".

وعرف أن الشيطان عرض له ليصده عن دينه؛ لأن الحرام لا يكون حلالاً أبدًا، كما أن النجاسة لا تكون طهارة أبدًا، فلا يتحول المحرَّم بشريعة الله إلى حلال؛ لأن رجلاً رأى في النوم من يحله لـــه، وإذا كنـــا لا نقبل ونحن في اليقظة بكامل عقولنا وقوانا من يحلل لنا الحرام، أو يحرِّم علينا الحلال.. فكيف نقبل ذلك في النوم، حين يغيب إدراك الإنسان ولا يعي ما حوله ؟ !

إن الاشتغال بهذه الرؤى العابثة هو شأن الفارغين، فإذا فقد الناس العلم الصحيح، والتوجيه السليم، اتجهوا لمثل هذه الخرافات، يروون بها ظمأهم وحاجتهم إلى الدين؛ ولذلك فإن لهذه الرؤى دلالة واضحة على مستوى الوعي والفهم في المجتمع.

وليس الحل هو أن يهبّ العلماء إذا سمعوا مثل هذه الأسطورة ليبينوا كذبها، هذا ولاشك مطلوب، ولكن يجب أن نسبق الأحداث، ونبذل جهودًا كافية لملء عقل الرجل والمرأة بالعلم الصحيح، والعاطفة الحية.. فالوقاية خير من العلاج.

لعل من الملاحظ أن بعض "القصاص" والوعاظ، يسردون كثيرًا من الأحلام في أحاديثهم، في الترغيب والترهيب.. وربما كان هذا المنهـــج- منهج المبالغة في ذكر الرؤى- ناتجًا عن قلة العلم بالنصوص الشرعية، وناتجًا عن فراغ فكري وعاطفي لدى هذا المتحدث أيضًا.

أتذكر أنني قرأت أبياتًا لأحد المسجونين يصف فيها حاله وحال أصحابه في السجن، ويقال إنه الشاعر المعروف: علي بن الجهم أو عبد الله بن معاوية، أو صالح بن عبد القدوس، ويقول:

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى
ففي يده كشف الضرورة والبلوى

خرجنا من الدنيا و إنا لأهلها
فلسنا من الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يومًا لحاجة
فرحنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا فجـــلُّ حديثنا
إذا نحن أصبحنا الحديث عـــن الرؤيا

فإن أحسنت لم تأت عجلى وأبطأت
وإن قبحت لم تحتبس وأتت عجلـــى

لماذا يتحدثون كثيرًا عن الرؤيا؟

أولاً: للفراغ، فليس لديهم أحاديث عن الوقائع والمستجدات؛ لأنهم

معزولون لا يسمعونها- خاصة في الزمن الماضي-، وليس لهم عمل يشغلهم ويقضي على فراغهم- خاصة في الماضي أيضًا-.

وثانيًا: لأنهم في حال كرب، والرؤيا قد تكون مبشرة تشعر السجين بقرب خلاصه، وربما كان في قصة يوسف ﷺ وصاحبيه ما يشير إلى أن السجين تحدث له الرؤيا، ويتحدث عنها أكثر من غيره، خاصة وهو يعلم أن الأبواب كلها قد أغلقت، فيلجأ إلى الله ويصدق معه، فيحدث له من صفاء القلب مالا يحدث له في غير سجنه.

إنه لجدير بالداعية أن يقتصد في ذكر الرؤى والأحلام، فلا يجعلها لُحمة وعظه وسداه، ولا يقيمها مقام الأدلة الشرعية. كان ﷺ - كما في الصحيح إذا صلى الفجر التفت إلى أصحابه فقال: **"هل رأى أحد منكم رؤيا؟"**[(١)] وفي بعض الروايات خارج الصحيح أن رجلاً قال له: " أنـــا يا رسول الله"، فقال له النبي ﷺ **"خيرًا تلقاه وشرًا توقاه ، وخيراً لنا، وشراً على أعدائنا، والحمد لله رب العالمين، اقصص رؤياك "**[(٢)] ، وربما كان هذا في أوقات معينة، إذ لم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه من الرؤى والمنامات كثير شيء، لكنه ﷺ حدد فائدة الرؤيا

(1) أخرجه البخاري (١٣٨٦)، ومسلم (٢٢٧٥) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(2) أخرجه الطبراني (كما في المجمع الكبير- ٨١٤٦)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣٦/٧) من حديث ابن زِمل الجهني ،وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٤/٧) وقال: "فيه سليمان بن عطاء القرشي، وهو ضعيف".اهـ. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٣٢/١٢): "سنده ضعيف جدًا".

بـــ"التبشير"، وما في معناه -والله أعلم- كالتحذير، أما التشريع، فلا تشريع في يقظة ولا منام بعد موته ﷺ.

وليس كل ما يراه الإنسان في المنام رؤيا؛ بل هناك "الحلم " وهو من الشيطان، وقد نهى النبي ﷺ أن يخبر الإنسان بتلاعب الشيطان به في المنام، وهناك حديث النفس، فإذا شغل أمر من الأمور بال الإنسان تراءى له في المنام، وقد يكون ما يراه بسبب اعتلال المزاج واختلاله، أو الشبع، أو الجوع، أو غيرهما.... وقد قرأت أن أحد الروائيين المشهورين كان يأكل أكلة ثقيلة ثم ينام، فإذا استيقظ دوّن ما رأى على شكل "رواية" أو قصة، يتداولها الناس ويتعجبون من خيال هذا الكاتب!

ومرة أخرى يجب التأكيد أن الداعية أو الواعظ لا يجدر به أن يتساهل في حكاية الروايات الواهية، والموضوعة، والمشكوك فيها.. أن فلانًا رأى، وفلانًا رأى.. ورأى رجل صالح فيما يرى النائم.. ورأت امرأة صالحة.. وما يدرينا نحن عن صلاحها؟ وقد يكون الإنسان ظاهره الصلاح لكن فيه "غفلة الصالحين"؛ فيحدث بكل ما سمع، وفي مقدمة صحيح مسلم مرفوعًا: **"كفى بالمرء إثمًا أن يحدِّث بكل ما سمع "**[(١)].

لقد أصبحت سيرة بعض الدعاة والمصلحين تلاك في كثير من المجالس؛ بسبب حشدهم لهذه الأقاصيص، وهذه الرؤى والأحلام، وتوثيقهم

(1) أخرجه مسلم (٥)، في مقدمة صحيحة وأبو داود (٤٩٩٢) وهذا لفظه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح.

لها بدون تثبت، وعدم تقدير نوعية المخاطبين ومستوى عقولهم. وإنه لمن الخطأ أن نربط إيمان الناس بأمر شرعي برؤيا حادثة، من حق أي إنسان ألا يصدقها أو أن يشك فيها، فنستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وخلاصة ما أراه: ألا يستكثر الواعظ من سرد الرؤى؛ بل يجعلها كالمِلْح إن زاد ضر، وإن نقص ضر، على أن يكون وفق الضوابط التالية:

- لا يترتب عليها حلال، ولا حرام، ولا تشريع.

- لا تكون مشتملة على تهويل أو مبالغة يأباها العقل السليم، فإن العلماء عدّوا المبالغة في الحديث من الأدلة على وضعه.

- ألا يربط إيمان الناس بها؛ بل يوجّهون إلى الكتاب والسنة، ويربون على تعظيمهما، والرؤيا لا تعدو أن تكون مبشرة أو محذرة.

- ألا يتسرع في التوثيق في أمور لم يطلع عليها بنفسه، ولا يبالغ في حسن الظن بمحدثيه.

- على أن يشرح للناس — وخاصة النساء - الموقف الشرعي الصحيح من الرؤيا، وأنواع ما يراه الإنسان في المنام، وآداب الرؤيا.. الخ.

وبالمناسبة فلعل الضغوط النفسية على المرأة في المجتمعات الإسلامية، من واقع التجاذب بين الرغبة في الالتزام، والتأثر بفتن الحياة جعلها تلجأ إلى حديث النفس، الذي يتحول إلى أحلام يقظة أو منام، مما يعطي المهتمين بقضايا المرأة مؤشرات تنبّه إلى أهمية معالجة الكثير من

المشكلات، التي تمثل عبئًا وضغطًا نفسيًا على المرأة قد لا تحتمله، ومن حق المرأة على كل قادر أن يسهم في حل مشكلاتها **"خيركم خيركم لأهله"**[١]، والجهد المبذول في ذلك استثمار رشيد تظهر نتائجه في سعادة البيوت، وصلاح الناشئة، وقوة الرجال.

* * *

(1) أخرجه الدارمي (٢٢٦٠)، وأبو داود (٤٨٩٩)، والترمذي (٣٨٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال الترمذي: "حديث حسن غريب صحيح".

لماذا يضيقون بالخلاف ؟

دخلت يومًا على طلاب كلية أصول الدين، وكنت أدرسهم مادة الحديث، فشرحت لهم حديثًا، ثم عرضت لمسألة فقهية فيه، وذكرت الأقوال وأدلتها والقول الراجح، فاستأذن طالب وقال: "في المحاضرة السابقة كان عندنا مدرس آخر في مادة أخرى، وقد عرض الأقوال ورجح غير ما رجحت، فنحن في أمر مريج، لا ندري أيكما المصيب؟"، قلت له: "يا أخي، هون عليك، هب أن مدرِّس الحديث إنما هو أحمد بن حنبل، أو مالك، وهب أن مدرس الفقه هو أبو يوسف، أو أبو حنيفة، وهب أن مدرس الأصول هو الشافعي -رحمهم الله أجمعين-، فما الذي سيحدث؟ ألا تعتقد أن كل واحد منهم سيقرر ويرجح مذهبه الذي عرضت لك؟" قال: "بلى"، قلت: "دع عنك هؤلاء الأئمة الأعلام، وافترض أنه درسك من هو أجل منهم وأعلم وأقدم، هل ينتهي الخلاف؟ ألست ترى أن مذهب أبي حنيفة — في مسألة مّا – سبقه إليه ابن مسعود رضي الله عنه، ومن قبل عمر رضي الله عنه، ومذهب مالك سبقه إليه أبو هريرة، وعائشة، وابن عمر رضي الله عنهم . ومذهب أحمد سبقه إليه ابن عباس رضي الله عنهما . ومذهب الشافعي سبقه إليه أبو بكر رضي الله عنه، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . إذًا فلم الجزع من اختلاف أهل العلم؟ هو اختلاف طبيعي، أسبابه معروفة، وليس وجوده بحد ذاته مشكلة؛ إنما المشكلة في أمور أخرى، لا بد من الوقوف عندها".

من المشكلات التي تحتاج إلى توعية جمهور الناس بشأنها: المنهج

الصحيح في التعامل مع الخلاف، ومن المشكلات: عدم التفريق بين أمور يتسع لها الخلاف، وأمور لا يجوز الاختلاف فيها بحال، ومن المشكلات: احتدام الجدل حول قضايا لا تنفع في الدنيا، ولا ترفع في الآخرة؛ وإنما هي محض ترف فكري حدا إليه الفراغ القتال، ومن المشكلات: أسلوب بعض المختلفين المتسم بالجرأة، والاتهام، والانفعال، والهيجان. كل هذه أمور تحتاج فعلاً إلى حديث، أما أصل قضية وجود الخلاف فهو أمر جبِلّي لابد منه شئنا أم أبينا.

لذلك فإنني أرثي لهؤلاء الذين ينطحون بقرونهم صخرة الواقع القدري الذي لا حيلة فيه، فإذا شعروا بالعجز انكفئوا على أنفسهم يلومون ويعاتبون، ويخطئون ويصوبون، فيدخلون في لجة الخلاف من حيث لا يشعرون.

إنه ليس كل الخلاف مذمومًا؛ بل منه مذموم ومنه محمود، ومنه ما لا يوصف بذم ولا حمد، ولكنه واقع لا مفر منه. فتعدد وجهات النظر والاجتهادات في مسألة ما ليس شرًا محضًا؛ بل قد يكون خيرًا يثري هذه القضية ويغنيها بمجموعة من الآراء المقبولة، وربما كان الحق موزعًا بينها، بمعنى أن كل اجتهاد منها يحمل بعض الحق، فيمهد هذا الطريق لمن يأتي بعدُ فيلتقط الحق الذي هنا، والحق الذي هناك؛ ليخرج بنتيجة مفصلة مرضية.

إني أعجب كل العجب من بعض الشبيبة الذين ما إن يرى أحدهم

اختلافًا بين عالمين، أو بين فئتين، في مسألة أو في عشر مسائل -إلا ويدعو بالويل والثبور، ويندب حظ الإسلام، ويتباكى على الأوضاع المتردية. نعم، المسلمون يُقتلون ويُشردون، وبلادهم تستباح، وأعراضهم تنتهك، واليهود يخططون ويعملون، والنصارى يتآمرون، والشيوعيون يتنادون، والسيخ، والهندوك، والبوذيون و.. و..

وفي كل أرضٍ من بلادي مصيبة
يهـــون بها ما كان قبل معظما

ولكن هذا لا يمنع- رعاك الله- من الحوار العلمي الهادف في حدوده المعقولة، والذي لا يحول دون شمولية الجهاد في ميادينه الواسعة الرحيبة.

ألم تعلم أن النبي ﷺ وهو كان بمكة يشرد ويطرد، ويخاف، ويضطهد أصحابه، ولم يكن يمنعه ذلك من تعليم أصحابه بتفاصيل الأحكام المنــزلة عليه، وكان من الطبيعي أن يختلف أصحابه حولهـــا أو حول بعضها، ثم لما هاجر إلى المدينة كان يخوض معركة شرسة مع الوثنية المتغلغلة في جزيرة العرب، معركة دعوية، ومعركة حربية، وكان يخوض معركة أخرى مع اليهودية المدججة بالعتاد والمال، ومع ذراعها الخفي المتمثل في حركة النفاق، ومعركة مع النصرانية، ولما مات ﷺ واجه المسلمون حركة الردة، وهي من أخطر التحديات التي واجهت الدعوة الإسلامية، ثم حركة الفتوح جهة فارس والروم، ومع كل هذا الجهد المتواصل على صعيد البناء، والتوسع، والاستقرار؛ كان المسلمون

-بما فيهم صحابة رسول الله ﷺ - يختلفون في أشياء كثيرة، كثيرة جدًا.

فلا هُم بالذين تشاغلوا بهذه الخلافيات وقعدوا عن نصرة الإسلام، كما يفعل بعض الدعاة اليوم، ولا هم بالذين انهمكوا في المعركة الكبرى واعتبروا الجدل بالتي هي أحسن في المسائل الاجتهادية خطأ يجب اجتنابه.

ومِن المتباكين على أوضاع المسلمين مَن لم يصنعوا شيئًا للمسلمين المنكوبين، غير أنها حجة يلوحون بها كلما ثار جدال بالتي هي أحسن في مسألة ما، وقد يكون من شأن هذا الجدل أن ينفض الغبار عن عقول كليلة، وأفئدة هزيلة، وقد يصحح خطأ، أو يقوم معوجًا، وهو يقع في وقته الذي يتطلبه، دون أن يكون الهمَّ المقعد المقيم، ودون أن يجور على غيره من الواجبات والأعمال.

وهو تدريب عملي على منهجية الحوار العلمي، وبناء لشخصية الإنسان، وتأهيل للاجتهاد، ونزع للعصمة عن الآراء والاجتهادات البشرية، وتحرير للأمة من ربقة التقليد المحض، وإعداد للجيل المتفقه المهيأ لبحث القضايا النازلة، ودراستها، وتنوير الأمة بشأنها.

* * *

فيه خلاف

هذه العبارة أصبحت نكتة ثقيلة يتداولها بعض الناس لقصد أو لغير قصد، وبعضهم يستخدم عبارة "فيه قولان"، حتى أنها تجري الآن مجرى المثل، ولست ممن يحبون تجاهل الواقع، ويدسون رؤوسهم في الرمال، فالخلاف موجود ولاشك، وإذا كان المثل السابق يقول: فيه قولان، فنحن نزيد من الشعر بيتًا أو بيتين.

في تفسير قوله ﷺ: **"الصوم لي وأنا أجزي به"**[1]، وهو حديث قدسي عن الله تبارك وتعالى، ذكر الإمام الشوكاني في فتاويه المسماة بـــ **"الفتح الرباني"** خمسة وخمسين قولاً، ثم أضاف إليها هو القول السادس والخمسين!

وفي تحديد ليلة القدر، أي ليلة هي؟ يذكر الحافظ ابن حجر في الفتح أنهم اختلفوا فيها اختلافًا كثيرًا، وأنه تحصل له من مذاهبهم في ذلك أكثر من أربعين قولاً! وقد وقع للحافظ نفسه في تحديد ساعة الإجابة يوم الجمعة نظير ذلك!

وفي تحديد الصلاة الوسطى، ما هي؟ أهي الظهر، أم العصر، أم المغرب، أم العشاء، أم الفجر؟ أم غيرها؟ اختلفوا على سبعة عشر قولاً! وأضاف إليها الشيخ محمد رشيد رضا فيما نقله عن شيخه محمد عبده قولاً جديدًا لا يخلو من وجاهة.

(1) أخرجه البخاري (٧٤٩٢)، ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ومع هذا، فإن هناك من يحاول تهويل الخلاف، ورسم صورة غير صحيحة عنه، فإذا كان هناك أمثلة للاختلاف، والاختلاف الواسع، فهناك أمثلة أخرى أكثر وأوسع للإجماع المطلق، وكما اختلف أهل العلم في مسائل فقد اتفقوا في أخرى من جميع أنواع العلوم الشرعية، ولو تتبعت مصنفات بعض أهل العلم: كابن المنذر، وابن عبد البر، والنووي، وابن تيمية، وغيرهم.. لوقفت على إجماعات كثيرة جدًا؛ بل إن ابن المنذر صنف كتابًا خاصًا في **"الإجماع "**، وكذلك فعل ابن حزم، وابن تيمية، وغيرهما..، ولابن قدامة في المغني باع في ذكر الإجماع أو ما يشبهه.

صحيح أن في بعض هذه الإجماعات تساهلاً، بمعنى أنه لا يصح فيها الإجماع؛ بل الخلاف فيها قائم ثابت، وأحيانًا يكون مشهورًا، لكن يسلم من ذلك شيء كثير. وقد جاء عن الإمام أبي إسحاق الإسفراييني أنه قال: "نحن نعلم أن مسائل الإجماع أكثر من عشرين ألف مسألة". وهذا العدد- والله أعلم- ليس غريبًا، ليس ضروريًا أن مسائل الإجماع تصل إليه فعلاً، لكن من المؤكد أن المسائل المجمع عليها كثيرة جدًا.

لكن من شأن الناس العناية بمسائل الخلاف أكثر من مسائل الإجماع، أرأيت هذه الأرتال من السيارات بعضها تلو بعض، لا يلتفت إليها أحد، فإذا حدث تصادم تجمهر الناس واحتشدوا! ولذلك كان من الأساليب التعليمية المفيدة البدء بالمتفق عليه، ثم الانتقال للمختلف فيه إذا تيسر ذلك.

فإذا أردت البحث في الماء ونجاسته، فابدأ بتقرير أن ما تغير بالنجاسة: لونه، أو طعمه، أو ريحه، أي بنجاسة تحدث فيه - فهو نجس باتفاق العلماء، ثم تقرير أن المياه الكثيرة الغزيرة لا تؤثر فيها النجاسة إذا لم تغيرها، ثم تنتقل إلى ذكر المسألة المختلف فيها وهي: مسألة الماء القليل الذي وقعت فيه نجاسة لم تغيره.. وهكذا.

ثم إن من الخلاف خلافًا لا يعتد به، ولا يلتفت إليه لشذوذه ومخالفته النص والإجماع السابق، وفي الأقوال المروية من ذلك شيء كثير:

وليس كل خلاف جاء معتبرًا

إلا خلاف له حظ من النظر

ولعل من أبلغ الشذوذات التي وقفت عليها، ما ذكره بعض المصنفين -كالقسطلاني وغيره- أن أبا الخطاب ابن دحية أفتى للملك الكامل حين سأله عن حكم صلاة المغرب في السفر، فأفتاه بجواز قصرها إلى ركعتين، وروى له في ذلك حديثًا باطلاً موضوعًا؛ بل قيل إن ابن دحية هو واضع هذا الحديث ومختلقه، وقد رمي مع غزارة علمه وكثرة حفظه بالمجازفة في النقل، وذكر أشياء لا حقيقة لها! وهذا القول مما يعلم بطلانه بالضرورة القطعية التي لا يرتاب فيها مسلم؛ إذ مقادير الصلوات مما توفر فيه الإجماع القولي والفعلي المطلق من عهد النبوة إلى يوم الناس هذا.

وأذكر حين زرنا **"إندونيسيا"** في رحلة دعوية، أن بعض المتشيعين

هناك، الناقمين على الشيخ الفاضل إحسان إلهي ظهير - رحمه الله - يزعمون أنهم صلوا خلفه في مسجد في **"سورابايا"** صلاة المغرب فقصرها إلى ركعتين وقال: أنا مسافر! وهذا من الكذب الغليظ الذي بلغ في نكارته حدًا يمنع من رواجه حتى لدى أعداء الشيخ ومناوئيه، فنحمد الله أنهم لا يحسنون الكذب!

وهناك أقوال شاذة لكنها لا تصل- على كل حال- إلى هذه الدرجة الموغلة المخالفة للقطعي، وهناك أقوال قديمة سادت ثم بادت، وجد من يقول بها في عصر من العصور، ثم ظهر من الأدلة الصحيحة، وضرورات الواقع الشرعي ما يقضي بزوالها فزالت واندثرت، مثل: ما نقل عن عثمان البتي أنه يقول بجواز الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، أو جواز استرقاق الحر بالدَّين يكون عليه..

ولقد حدث خلاف في العصر الأول على كتابة الحديث، وتمسك قوم بمنع الكتابة محتجين بقوله ﷺ: **"لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمْحُهُ"**[1]، وذهب آخرون إلى الكتابة لنصوص وأدلة معروفة، ثم اتفق المسلمون على مشروعية كتابة الحديث والعلم، واندرس القول بمنع ذلك، بزوال الظروف والأسباب التي كان يتذرع بها إلى عدم الكتابة. ومثل ذلك أشياء كثيرة وَهَلَ الناس منها أول الأمر، واستغربوها، وتمسكوا ببعض الظواهر في إنكارها، ثم استبان لهم الأمر، واستقر القول الفصل بلا نكير.

(1) أخرجه مسلم (٣٠٠٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ومع الخلاف، فالخلاف شأن العلماء، ولا دخل للعامة والمتطفلين فيه، والعلماء يديرون الأمور بينهم على ما تقتضيه المصلحة، ويتشاورون ويتراجعون فيتفقون أحيانًا، ويختلفون أحيانًا، فاتفاقهم حجة، واختلافهم رحمة، اللهم إلا اختلاف يكون باعثه الهوى والغرض، فهذا ولاشك شر وعذاب.

ينبغي للعامة أن ينصرفوا إلى معرفة كيفية العبادة: من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج ونحوها... وما هو حكم الله ورسوله في أمورهم التي يتعاطونها ويديرونها بينهم، وكيف يتوصلون إليه، ويدعون ما سوى ذلك لأهله. وقديمًا قيل: يخرب الأبدان نصف طبيب، ويخرب الأديان نصف عالم.

ثم عليهم- أيضًا- أن يدبروا أمر دنياهم: من تجارة، وزراعة، وصناعة، وعلاج.. على الوجه الأفضل الذي يحقق لهم أفضل النتائج، ويرفعهم عن الوهدة التي صاروا؛ بل صرنا بها أضحوكة الأمم، ومسخرة الشعوب، والله المستعان.

